الباب الأول

مقدمات التشيع

لن نحاول هنا – ونحن نبحث فى نشأة التشيع فى الإسلام ، أن نخوض خوضاً كاملا فى تاريخ الشيعة السياسى ، وإن كانت السياسة ، أو الإمامة ، إذا تكلمنا بلغة فقه الشيعة . هى الحجر الأساسى فى نشأة الشيعة وظهورها فى الإسلام . ومن العجب أن يبدأ التشيع بعقيدة مؤداها : أن على بن أبى طالب هو الإمام بعد رسول الله ﷺ بالنص الجلى أو الخفى ، وأن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده – وإن خرجت فبظلم أو تقية منه ومن أولاده – عجباً أن تبدأ هكذا ثم تنتهى إلى مذاهب فلسفية وسياسية معقدة تمام التعقيد ، مركبة من مختلف المذاهب . أو بمعنى آخر عقيدة فى حب آل البيت – تتطور خلال التاريخ وتبعاً لحوادث السياسة إلى مذهب فلسفى الاعتزال أحياناً ، والغنوص أحياناً . ويتستر خلفها مجموعات من أشد أعداء محمد ﷺ ضراوة وحقداً يكيدون بكل الوسائل القضاء على رسالته ، وعلى العقيدة التى حارب ابن عمه على لأجلها بكل قواه .

ومن الخطأ الكبير القول : إن هناك تشيعاً واحداً خلال التاريخ ، كان لكل عصر نوع من التشيع : ولكل طائفة شيعية نوع من التشيع وما أشد الخلاف بين حب مجموعة من الصحابة لعلى فى عهد الرسول وفى عهد الشيخين وبين حب أنصار على الملتفين حوله فى طرقات الكوفة والبصرة وما اشد الخلاف بين هذا الحب وبين جرأة التوابين من أصحاب حجر بن عدى وفداء التوابين من أصحاب سليمان بن صرد . وبعظم الخلاف بين عاطفة كل من سبق وبين الشيعة الحقيقية فى عهد جعفر الصادق ، حين نشأ المذهب الكلامى للشيعة ، وفتق المتكلمون من تلامذة جعفر بن محمد الكلام فى الإمامة وخاضوا الفلسفة فى جميع نواحيها . وما أشد الخلاف ثالثة بين كل هذا وبين عقيدة الاثنى عشرية ، بعد وفاة الإمام الثانى عشر : وليست هذه هى كل صور التشيع بل هناك الزيدية . يقتربون من أهل السنة ، وهم بعد شيعة . وإسماعيلية يبتعدون عن أهل السنة عن الاثنى عشرية وهم بعد شيعة . والكيسانية – وهم أتباع محمد بن الحنفية أو شيعته . والغلاة من الواقفة وعلبائيه وبيانية وخطابية ودروز ، إلخ ، وهم كلهم شيعة والتشيع الأول كان مجسماً والتشيع الأخير كان معتزلياً . وهم جميعاً شيعة .

فالتشيع إذن ظاهرة مركبة معقدة ، وبين طوائف الشيعة قديماً وحديثاً من الاختلاف ما لا نجده بين طوائف أهل السنة قديماً وحديثاً ، وليس بين الخلف والسلف ، وهما فريقا أهل السنة الكبيران الآن ، ما بين الإسماعيلية والاثنى عشرية – وهما فريقا الشيعة الكبيران الآن – من خلاف كبير وتنافر شديد .

ويلاحظ جولد تسيهر أن من الخطأ الكبير أن نطلق لفظ الفرق على طوائف أهل السنة من مرجئة وكلامية وأشعرية وما تريدية ومشبهة أو أن نطلق لفظ الفرق على المعتزلة ، ويحاول أن يفرد هذا الاسم « فرقة أو فرقاً » على الطوائف التى اختلفت مع جمهرة المسلمين فى مسألة الإجماع [١] ، فالخوارج مثلا فرقة لأنها لم تتفق مع المسلمين فى إجماعهم على خليفة من الخلفاء ، وكذلك الشيعة ، وهى الطائفة التى تشيعت لعلى خاصة ، وأفردت الإمامة والخلافة له ولمن بعده من بنيه فخرجت عن إجماع المسلمين فالتقابل الكبير الحاسم بين طوائف المسلمين إنما كان بين الشيعة وأهل السنة والجماعة [٢] . فقد تولى الأولون الخلفاء الثلاثة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الآخرون فقد اعتبروهم غاصبين أخذوا الخلافة قسراً وخداعاً من الإمام الوصى الذى عينه النص الإلهى فى مواضع متعددة .

الشيعة إذن هى الطائفة التى تقابل بالتضاد أهل السنة والجماعة ، واختلفت معهم فى إجماعهم اختلافاً بيناً . ولكن كيف حدث هذا الاختلاف وانتهى إلى قتال مرير وأحقاد وسخائم وانتهى إلى تفرق كلمة المسلمين حتى عصورنا الحديثة .

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة فى الإسلام (ترجمة الدكتور محمد موسى وزميليه) ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٧٤ .

الفصل الأول

النص الإلهي والإمام

نشأ محمد ﷺ في بطن من بطون قريش ، بني المطلب من بني هاشم بن عبد مناف . وكان محمد ﷺ في الصدارة العظمى نسباً في هذه القبيلة العربية العجيبة الشأن . وكانت هذه القبيلة تنتسب إلى إبراهيم الرسول ، بل كان يطلق على سيد قريش . وجد الرسول ﷺ « إبراهيم الثاني »(١) وجاءت الرسالة الإلهية محمداً ﷺ في فترة كف فيها الوحي الإلهي بعد أن أشرف في المرة الأخيرة على المسيح عيسى بن مريم ، وأعلن الوحي الإلهي إعلاناً لا محيص عنه ، أن محمداً ﷺ خاتم النبيين « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » سورة ٢٣ آية ٤٠ — ويعتقد المسلمون أن الدورة الكبرى ، دورة الأنبياء قد انتهت بمحمد رسول الله انتهاء أبدياً . ولكن اختلفوا في أمر الدين والدنيا . أما في أمر الدين ، فقد رأى جمهرة المسلمين أنه إذا كان ثمة حاجة لهداة يتابعون الرسالة ويعلنونها للناس ، فإن هؤلاء الهداة إنما ينبعثون ويظهرون في صورة أولياء أو أئمة مصداقاً للحديث « إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد شباب دينه » وحاول أهل السنة والجماعة فيما بعد ، أن يحددوا أسماء هؤلاء الأئمة الذين ظهروا في رأس كل مائة عام ، فقاموا بالجهاد إما فكرياً وإما بالقتال والجهاد . أما في الدنيا ، فقد رأى الجمهور من المسلمين أن عليهم أن يبايعوا خليفة يخلف الرسول في القيام بأمر دنياهم ، وحددوا شروط هذا الخليفة . واتفقوا على أن الرسول لم ينص على واحد بعينه نصاً صريحاً وإنما اجتهدوا في الأمر بعقولهم » .

أما الطائفة الأخرى التي تقابل بالتضاد جمهور المسلمين ، أو بمعنى أدق أهل السنة والجماعة ، فهي طائفة الشيعة ، التي اعتقدت اعتقاداً جازماً حاسماً أن الإمام أو الخليفة ، إنما يعينه النص ، ثم يستتبع تعيين النص له أن يكون معصوماً ، وتستدعي العصمة منه ، أن ينص على من يخلفه من الأئمة ، إذ لابد للأرض من قائم يدعو إلى الحق ويدافع عنه .

وقد انتقل النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتولى الخلافة بعده الصاحب الأول وهو أبو بكر بن قحافة المشهور بأبي بكر الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ثم

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (طبعة النجف ١٩٥٨) جـ ٢ ص ٧ .

على بن أبى طالب . وبينما يذهب أهل السنة إلى أن عليًا قد قبل الخلافة الثلاث وأطاع الخلفاء الثلاثة وأحسن لهم المشورة ، يذهب الشيعة إلى أن على بن أبى طالب ما كان مكرهاً وحين تولى آخر الأمر ، لم يبق فى خلافته إلا زمناً يسيراً ثم قتل غيلة ، ثم قتل ابنه الحسن مسموماً وقتل أبو عبد الله الحسين ابنه الآخر فى سهل كربلاء ، وقتل أولاده معه ، ولم يبق إلا ولدان تناسلت منهما الأسرة العلوية ، وتتابع القتل على أغلب رجالها ، بحيث يعتبر تاريخ تلك الأسرة حقاً مأساة من أكبر المآسى فى تاريخ الإنسانية ، ولقد صور الشيعة تلك المآسى تصويراً أخاذاً ، وبكى شعراء الشيعة أهل البيت وعترته بكاء مريراً ، ورأوا فيهم صورة الإنسانية الحزينة . وبقى البكاء سمة الشيعة حتى قيل « أرق من دمعة شيعية » ورأى أئمة أهل البيت أنفسهم ، أن « المحن والعذاب » كأس كتب عليهم تناوله ، ونرى فاطمياً منهم فيما بعد ، وهو العزيز بالله (المتوفى عام ٢٨٦) يبكى فى يوم عيد توفى فيه ابنه فيقول :

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها فى الحياة كاظمنا
عجيبة فى الأيام محنتنا أولنا مبتل وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم جميعاً وأعيادنا مآتمنا[1]

إن المسلمين أجمعين – اللهم إلا السلف – من الحنابلة المتأخرين رأوا فى أهل البيت جميعاً ملاذاً لهم فى أدعياتهم وتوسلاتهم وقد أمروا فى صلواتهم بالدعاء لهم ، والصلاة عليهم . ويجد المسلمون جميعاً سنة وشيعة فاطمة الزهراء واعتبروها سيدة نساء العالمين ، ومنها بقى الدم النبوى فى آفاق الأرض . وفاطمة الزهراء العقب الوحيد الباقى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عاشت فى أحضان الرسول ، وذاقت مرارة اليتم – بعد وفاة أمها ، وتحملت مع أبيها – وهى طفلة غضة – عذاب قريش والقرشيين واضطهادهم ، وكانت مثلا من أمثلة الفداء ، ولم تهن على الإطلاق . وقد هاجرت مع عمها على بن أبى طالب فارس الإسلام من مكة إلى المدينة ، يسيران ليلا ويختفيان نهاراً ولما عودها زفت إلى ابن عمها ، وحوارى أبيها ، ثم حملت حفيدا محمد صلى الله عليه وسلم ، الحسن والحسين ، زهرتا بنى هاشم ، وسيدا شباب أهل الجنة ، كتب عليهما الموت شهادة فى الميلاد .

وحين أتى وفد نجران إلى الرسول وسألوه عن حقيقة المسيح ، نزل القرآن « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » ثم دعا إلى المباهلة « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ورضى الوفد بالمباهلة – فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم آخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلى بين يديه وألقى عليهم الرسول صلى الله عليه

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٥٤ .

وسلم بكسائه ، وقد عرفت هذه الحادثة بحديث الكساء وعرف الحديث الواحد فيها بحديث الكساء ثم جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وركع ، فانسحب الوفد النجرانى – هارباً ورفض المباهلة . وسنرى بعد ذلك كيف ألهمت فكرة المباهلة القرآنية حماس المباهلة عند فرق الغنوصية الشيعية المخبسة .

وحين مرض الرسول صلى الله عليه وسلم – وذهبت فاطمة لتعوده ملتاعة خرجت ضاحكة لتعلن أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشرها بأنها ستلحقه فى رياض الله قريباً . وحين تولى أبو بكر خلافة المسلمين ، غضبت فاطمة وقد رأت أن لعلى الحق الأكبر فى الخلافة ، واجتمع جماعة من المهاجرين والأنصار مع على بن أبى طالب فى منزل فاطمة – وعلم أبو بكر وعمر بالأمر فذهبا مع جماعة من المهاجرين ، وهجموا على الدار فخرجت فاطمة فقالت « والله لتخرجن أو لأكشفن شعرى ولأعجن إلى الله » وخشى الصحابة دعوتها فخرجوا .

وبعد سبعين ليلة من وفاة الرسول أحست فاطمة بالموت . فقالت لصديقتها أسماء بنت عميس : ألا ترين إلى ما بلغت ، أفأحمل على سرير ظاهرا . لقد خشيت فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله أن تحمل على سرير يظهر جسدها المسجى للناس فقالت لها أسماء : لعمرى يا بنت رسول الله ، ولكنى أصنع لك شيئاً فقالت فاطمة : فأرينيه فأرسلت إلى جريد رطب فقطعته ، ثم جعلتها على السرير نعشاً . وهو أول ماكانت النعوش . وتبسمت الزهراء الطاهرة وما رؤيت مبتسمة إلا يومئذ . وحضرت نساء من قريش فى مرضها وقلن لها : كيف أنت يا ابنة رسول الله – قالت : أجدنى كارهة لدنياكن مسرورة لفراقكن ، فما حفظ لى الحق ، ولا رعيت منى الذمة ، ولا قبلت الوصية ولا عرفت الحرمة ، وبعد سبعين يوماً من وفاة الرسول ﷺ – كما قلت – أسلمت الروح وبين يديها طفلاها الصغيران الحسن والحسين ، وكان سنها ثلاثا وعشرين سنة .

كانت حياة فاطمة الزهراء القصيرة عظة كبرى للمسلمين جميعاً ، المهاجرة الصغيرة فى ظلام الليل الدامس ، مع ابن عمها الفتى ، تسير فى دروب جبال مكة متخفية ، ثم تخترق الصحراء الكبيرة فى طريقها إلى يثرب ، وأعداء أبيها اللدد فى إثرها وإثر ابن عمها ، ثم هجرتها الأخيرة فى رحلة الموت إلى الله ورسوله – أفعم كل هذا المسلمين جميعاً بالأسى ، وقد كان أبو بكر يتذكر فاطمة ويبكى ، بل أعلن حين موته ندمه أن اقتحم منزلها بالرجال . وكانت فاطمة الزهراء تؤمن بلا شك بحق على فى الخلافة ، ولم يكن هذا منبثقاً عن أمل فى مشاركة ابن عمها حكم المسلمين ، لقد كانت تعلم عن يقين أنها تاركة الدنيا سراعاً ، ولكن عن إيمانها بأحقيته وأهليته للمهمة الكبرى التى تركها الرسول صلى الله عليه وسلم . وإذا كان المسلمون أجمعين اعتبروها « زهرة الوجود » و « عطر الحياة » و « الأنثى الخالدة »

فإن الشيعة من بين المسلمين ، قد اعتبروها البرهان الأكيد على عقيدتهم فى الحق الإلهى لعلى ، بل يؤمنون بأنها الشهادة الكبرى من رسول الله على أحقية على بن أبى طالب فى خلافة الرسول ديناً ودنيا ، ولقد تحرزوا عن دعوتها بالأنوثة ، ودعوها « بفاطم » وشغلت أم الإمامين والأئمة جميعاً فى أفكار الشيعة وفى عقائدهم مكاناً قدسياً وحرماً طاهراً .

ولئن احتلت فاطمة من ناحية ، وعلى من ناحية أخرى المكان الكبير عند أهل السنة والجماعة ، إلا أنهم قرروا قراراً حاسماً أن النبى صلوات الله عليه لم ينص على ولاية على أى نص ، وأما عن ولاية أبى بكر – فقد اختلف أهل السنة والجماعة هل هى بالنص الخفى أو بالنص الظاهر ، أو أنه ترك الأمر لاجتهاد المسلمين .

أما من يرون أن ولاية أبى بكر بالنص الخفى – فيذكرون الواقعة المشهورة : أن الرسول – فى أثناء مرضه – أمر أن يؤم أبو بكر المسلمين فى الصلاة – والصلاة هى الإمامة الصغرى . فأولى به أن يكون هو صاحب الإمامة الكبرى ، إمامة المسلمين دنيا ودينا . أما من يرون أن الرسول صلوات الله عليه نص على أبى بكر وقطع البيان على عينه حتماً ، الحديث المشهور أن امرأة أتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم لتسأله أمراً من الأمور . فأجابها وطلب منها أن ترجع إليه متى أرادت ، فقالت : « أرأيت إن جئت فلم أجدك » كأنها تريد الموت . قال : « إن لم تجدينى فأتى أبا بكر » والحديث الآخر : « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر » . وأسند البخارى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفى نزعه ضعف ، والله يغفر له ضعفه ، ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب ، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن » وذلك نص فى الإمامة عند أهل السنة والجماعة ، والفئة الثالثة – وهى ترى أن رسول الله ﷺ ترك الأمر لاجتهاد المسلمين ، ورأى المسلمون أن أبا بكر هو ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وأول من آمن من الرجال ، ثم رجل الصحبة الطويلة . وأخيراً – عهد إليه الرسول بالصلاة – الإمامة الصغرى ، فقاسوا الأمر ، بأن تكون له الإمامة الكبرى – أى الخلافة .

أما الشيعة فترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد نص على إمامة على للمسلمين من بعده فى مكة منذ بدء الإسلام ، فحين نزل الوحى عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب فى دار أبى طالب – وهم أربعون رجلا ، وبلغهم رسالته – ثم سألهم : « من الذى يبايعنى على ماله » فبايعته جماعة من المسلمين ، وسخر منه من لم يؤمنوا به ، ثم سألهم « من الذى يبايعنى على روحه وهو معينى وولى هذا الأمر من بعدى . فلم يبايعه أحد . وقام على ومد يده إليه فبايعه

على ماله وروحه – وصاحت قريش معيرة أبا طالب « إنه أمر عليك ابنك » .

أما العلامة الحلى صاحب منهاج الكرامة وعلم الشيعة الكبير، فقد أوردها على الشكل الآتى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بنى عبد المطلب فى منزل عمه أبى طالب وقال لهم : « يا بنى عب المطلب إن الله بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة فقال، « وأنذر عشيرتك الأقربين » وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين فى الميزان تملكون بهما العرب والعجم ، وتنقاد لكم بهما الأمم ، وتدخلون بهما الجنة وتنجون من النار شهادة أن لا إله إلا الله وأننى رسول الله ، فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به يكن أخى ووزيرى ووصيى ووارثى وخليفتى من بعدى ، فلم يجبه أحد منهم . فقال أمير المؤمنين (أى على) أنا يارسول الله أؤازرك على هذا الأمر فقال : اجلس ، ثم أعاد القول على القوم ثانياً فصمتوا فقال على : فقمت فقلت مثل مقالتى الأولى فقال : اجلس . ثم أعاد القول ثالثة ، فلم ينطق أحد منهم بحرف . فقمت فقلت : أنا أؤازرك على هذا الأمر . فقال : اجلس فأنت أخى ووزيرى ووصيى ووارثى وخليفتى من بعدى . فنهض القوم وهم يقولون لأبى طالب : ليهنك اليوم أن دخلت فى دين أخيك فقد جعل ابنك وزيراً عليك[1] .

رأى الشيعة فى هذا الحديث الذى ورد بصيغ مختلفة سنداً كبيراً لفكرتهم فى النص الجلى على إمامة على بن أبى طالب وخلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف أهل السنة والجماعة فى صحة هذا الحديث ، فبينما ذهب إلى صحته البعض جرحه البعض الآخر ، ولكن أهل السنة والجماعة ، لم يروا فيه على الإطلاق مساساً بخلافة أبى بكر .

ثم هناك الحديث الهام حديث الغدير والذى اتخذه الشيعة سنداً لأحقية علىّ الكاملة فى خلافة المسلمين بعد رسول الله . فقد خرج النبى صلوات الله وسلامه عليه من مكة بعد حجة الوداع ، وفى الطريق نزل عليه الوحى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل ، فما بلغت رسالته » . آية ٦٧ سورة ٥ ، وكان النبى عند غدير خم ، فأمر بالدرجات وجمع الناس فى يوم قائظ شديد القيظ ودعا علياً إلى يمينه وخطب فقال « لقد دعيت إلى ربى وإنى مغادركم من هذه الدنيا وإنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، ثم أخذ بيد على ورفعها وقال « يا أيها الناس ألست أولى منكم بأنفسكم . قالوا : بلى ! قال : من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار . فقال عمر بخ بخ : أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة . ثم عاد الرسول إلى خيمته ونصب لعلى أخرى بجانبها ، وأمر المسلمين

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ٤ ص ٨ .

أن يبايعوه بالإمامة ويسلموا له بإمرة المؤمنين جميعاً رجالا ونساء(١) .

هذا هو حديث غدير خم الذى اعتقده الشيعة سنداً صريحاً لهم فى القول بإمامة على وقد اعترف أهل السنة جزئياً بصحة هذا الحديث . وأولوه بأن المقصود من الولاية هنا الولاية الروحية . بل إننا نرى الحسن البصرى – إمام التابعين يعلن أن علياً ربانى هذه الأمة ، أما السلف من الحنابلة المتقدمين فقد أولوا الموالاة بعدم الكراهية ، وأنكر السلف المتأخرون الحديث إنكاراً تاماً . ومن العجب أن السلف الذين يكرهون التأويل وينكرونه ، يؤولون هنا .

ثم أورد الشيعة أحاديث أخرى مثل « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى . . . إلخ .

وذكروا نصوصاً أخرى من القرآن ، وفسروها تفسيراً مجازياً إلى حد كبير ، وكلها تنصب على النص على إمامة على بن أبى طالب. وأوردوا أيضاً جملة من حوادثه تثبت إمارته . ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر عليه فى الغزوات أميراً ، ومنها أنه تركه فى كثير من المواضع أميراً ، وطلب من المسلمين دعوته بإمارة المؤمنين ، ومنها أيضاً أنه بعثه إلى مكة ليقرأ سورة براءة بدلا من أبى بكر .

وفى إيجاز آمن الشيعة إيماناً عميقاً بإمامة على ، ولعنوا من على منابرهم إلى يومنا هذا لغاصبين الثلاثة . وهنا نقطة البدء فى مذاهبهم – فلسفية كانت أو غير فلسفية ، والتى عرفت فى العالم الإسلامى باسم الشيعة وما اتصل بها من مذاهب. وتشمل الشيعة فى عصورنا الحاضرة فرقاً ثلاثة هى الاثنى عشرية . والإسماعيلية ، والزيدية .

أما الاثنى عشرية أو الجعفرية نسبة إلى الإمام جعفر الصادق فهى التى تقول – كما سنرى بعد – بإمامة على ثم الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين (زين العابدين ثم محمد بن على بن الحسين (محمد الباقر) ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر ثم على الرضا ثم محمد بن على الجواد ثم على الهادى ثم الحسن العسكرى ثم الإمام محمد المنتظر . ويعيش الشيعة الاثنى عشرية الآن فى العراق ، وينتشرون حول المشاهد الشيعية المقدسة فى بغداد والنجف وكربلاء ، ثم فى إيران ثم منهم جاليات كبيرة العدد فى القوقاز ، ثم العاملون فى جبل بنى عامل فى لبنان وفى سوريا أيضاً عدد قليل من الشيعة الاثنى عشرية ، وبعض سكان الكويت والأحساء والبحرين ، ثم عدد كبير فى الهند وباكستان ، وليس فى مصر ولا شمال أفريقية شيعة على الإطلاق . وعدد الشيعة الإثنى عشرية فى العالم الآن ثمانون مليوناً .

أما الإسماعيلية ، وهم الذين قالوا بإمامة سبعة من الأئمة . والإمام السابع عندهم هو إسماعيل بن جعفر . وينقسمون الآن قسمين – طائفة الإسماعيلية يتزعمها سلطان بوهرا ، وينتشرون فى الهند وفى

(١) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٨١ والمجلسى : حياة القلوب ص ٣٣٩ .

اليمن . وطائفة الإسماعيلية النزارية ويتزعمها كر خان وهي منتشرة فى الهند وباكستان وشرق أفريقيا وجالية قليلة العدد فى سوريا وتمتاز تلك الطائفة عن الطائفة الأولى بأنها أكثر فلسفة وعمقاً فى البحث النظرى . وكان دعاتها يدرسون الكتب الفلسفية دراسة وافية وبخاصة الفلسفة اليونانية ثم الفلسفة الغنوصية . ويقال إن ابن سينا نشأ إسماعيلياً ، وإخوان الصفا إسماعيليون ، ويقدر عدد الشيعة الإسماعيلية من الفريقين – بسبعة عشر مليوناً . أما الزيدية وهم [illegible] والجماعة ، وهم الذين تابعوا زيد بن على ، حين رفض التبرأ من الشيخين . [illegible] ينتشرون فى اليمن . وأغلب القبائل اليمنية الجبلية زيدية . ومن الصعوبة بمكان تحديد عددهم .

أما الغلاة : فمنهم الدروز فى لبنان وسوريا وشمال فلسطين ، ومنهم العلبائية والشبك والصارولية وطوائف أخرى صغيرة – عربية وكردية ، فى شمال العراق وإيرانية فى الشمال الغربى لإيران . فما زال للشيعة إذن كيانهم العددى وقوتهم المادية والمعنوية . فكيف نشأ المذهب إذن ، هذا ماسنحاول أن نلقى عليه الضوء فى الفصل المقبل .

obeikandl.com

الفصل الثانى

نشأة الشيعة

متى نشأت الشيعة وظهرت فى التاريخ ، ومتى ظهر مصطلح « الشيعة » أو التشيع كمصطلح يدل على الاعتقاد المطلق الكامل بأن علياً هو صاحب الحق الأول فى الخلافة ، وأن الخلفاء الثلاثة الذين جاءوا قبله غاصبون لإمامته الروحية وخلافته منذ اليوم الأول الذى مات فيه النبى بغض النظر عن كونه تولى الخلافة فعلا أو لم يتولها ، وجعل الإيمان بالإمام أو بالوصى جزءاً من الإيمان الدينى ومتمماً للشهادتين ، ثم الاعتقاد المطلق بأن علياً هو مستودع العلم اللدنى وإليه تعود الأسرار الإلهية الكاملة وأنه خاتم الأوصياء جميعاً .

يحاول بعض علماء الشيعة – ما وسعتهم المحاولة بل الحيلة أحياناً – أن يثبتوا أن الشيعة تكونت مع مطلع الرسالة وترعرعت فى أحضانها ، ونودى بها منذ نادى الرسول بكلمة التوحيد وحين صاح الوحى فى الرسول « وأنذر عشيرتك الأقربين » وأنذرهم ، فما استجاب له فى قوة وفداء سوى على أولا ، والعترة الطيبة المؤمنة من آله ، ومجموعة من رجال قريش ثانياً ، والتف حول علىّ منهم « شيعة على الحكماء العلماء النبلاء الشفاه الأخيار الذين يعرفون بالرهبانة من أثر العبادة » هؤلاء هم عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبو ذر الغفارى والمقداد بن الأسود وسلمان فى المدينة فيما بعد . ويحاول علماء الشيعة أن يثبتوا أن لكل من هؤلاء الصحابة وجهة تمثل ناحية من النواحى الروحية فى الإسلام.

والخطأ الأكبر فى هذه المحاولة أنه لم يكن بين يدى الرسول شيعة وسنة وقد أعلن القرآن « أن الدين عند الله الإسلام » لا التشيع ولا التسنن ، وأتى الإسلام لكى يرفع الحجز بين الناس ، فلا هاشمى ولا قرشى ولا تيمى ولا غيره ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ومن الصحابة الأوائل بعد على وأبى بكر وعثمان بن عفان من بنى عبد شمس ، فهل كان عثمان يكره علياً أو هل كان أبوذروعمار بن ياسر يكرهان عثمان . ونحن لا ننسى أبداً أن أبا بكر هو الذى عتق عمار بن ياسر وأنه استخدمه بعد ذلك أميراً . لم يكن هناك شيعة لا روحية ولا سياسة بين يدى النبوة ، ولم تظهر كلمة الشيعة كمصطلح على الإطلاق إبان ذلك الوقت .

وإذا انتقلنا إلى ولاية أبى بكر ، فلا نرى على الإطلاق الشيعة تلتف حول على بالمعنى المفهوم الآن

من مصطلح الشيعة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى على فراشه ، وقارئ من وراء الغيب يقرأ « السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز فوزا وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وكان على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وأسامة بن زيد يغسلون الجسد العظيم ، ويكفنونه ، ثم حملوه إلى قبره فى حجرته ، ونادت الأنصار « اجعلوا لنا فى رسول الله نصيباً فى وفاته ، كما كان لنا فى حياته » فدعا على بن أبى طالب أوس بن خولى أحد الأنصار فنزل معهم إلى القبر ، ووسد الرسول التراب بينما على يفعل هذا ، إذ بالأنصار يجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة ، ويعلنون إمارة سيد الخزرج ، والصحابى الكبير سعد بن عبادة على المسلمين وبلغ الأمر أبا بكر وعمر وبعض المهاجرين فأتوا مسرعين ، فنحوا النامس عن سعد وخطب أبو بكر وقال : يا معشر الأنصار منا رسول الله فنحن أحق بمقامه ، وقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير : فقال : أبو بكر : منا الأمراء وأنتم الوزراء : وتلاحى القوم بالكلام وما لبث الأنصار أن تراجعوا حين دعا أبوعبيدة الجراح إلى مبايعة أبى بكر ، وبايعه : وقال والله ماكنا لنتقدمك وأنت صاحب رسول الله وثانى اثنين ، ثم نادى فى الأنصار « يا معشر الأنصار : إنكم كنتم أول من بايع ، فلا تكونوا أول من غير وبدل . وبايع الأنصار جميعاً .

وغضب بنو هاشم أن تم الأمر فى غيبتهم ، ووقف عتبة بن أبى لهب ينشد شعراً فى على . يقول اليعقوبى « فبعث إليه على عليه السلام فنهاه »[1] وتخلف مع على جماعة لم يبايعوا ، فهل كان هؤلاء شيعته ، إننا نرى من بينهم الزبير بن العوام ، وقد حارب علياً فيما بعد ، ونرى فيما يقول اليعقوبى « وكان فيمن تخلف عن بيعة أبى بكر أبو سفيان بن حرب وقال : أرضيتم ياعبد مناف أن يلى هذا الأمر عليكم غيركم . وقال لعلى بن أبى طالب . امدد يدك أبايعك .

بنى هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم و إليكم وليس لها إلا أبوحسن على
أبا حسن فاشدد بها كف حازم فإنك بالأمر الذى يرتجى ملى
وأن امرءا قصيا وراءه عزيز الحمى والناس من غالب قصى

وإننا نعلم أن أبا سفيان كان أعدى أعداء محمد ﷺ وعلى .

ولقد كان أبو سفيان زنديقاً أى ممن يؤمنون بالمجوسية الفارسية ، ولعله رأى بعينه الغادرة أن هذه

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ١٠٣ .

فرصة نادرة لإلقاء بذور الفتنة بين المسلمين . ومن المرجح أيضاً أنه غضب لعشيرته القديمة – بنى عبد مناف ، وأن يسلب الحق منها . ولكن علياً كان أحكم من أن يدع يد أبى سفيان تتلاعب بصالح الإسلام .

ويقول اليعقوبى « واجتمع جماعة إلى على بن أبى طالب عليه السلام يدعونه إلى البيعة له ، فقال لهم : اغدوا على غدا محلقين الرؤوس ، فلم يغد عليه إلا ثلاثة نفر »(١) ونحن نعلم أن اليعقوبى وهو من أقدم مؤرخى الشيعة (توفى سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٥م) ، لم يذكر كلمة الشيعة على الإطلاق حتى هذه المرحلة من تاريخ الإسلام . وكذلك فعل المسعودى وهو مؤرخ شيعى قديم .

غضب لعلى – كما رأينا – بنو هاشم ، وبنو أمية ، غضبوا أن تولاها رجل من تيم ، كما غضب قلة من الناس أحبوا علياً ، ثم ما لبث الجميع أن ساروا فى ركاب الخليفة ، فعملوا له فى كل نواحى الحياة ، وذلك حين سار الخليفة على هدى رسول الله وسنته ، وحينما تولى الخلافة الصاحب الثانى عمر ابن الخطاب ، رجل من عدى بن كعب ، لانسمع همساً ولا علناً . ولم تكن هناك شيعة أو تشيع ، وعمل الجميع لعمر وكان على بن أبى طالب نفسه وزيره وقاضيه ولم نر أيضاً لكلمة الشيعة كمصطلح ذكرا .

وللمرة الثالثة بايع المسلمون عثمان بن عفان المشهور بذى النورين ومن بنى عبد شمس . ورضى عنه المسلمون جميعاً ، وكان رجلا حيياً خجولا ، عاش فى نعمة سابغة قبل النبوة ، ثم آمن برسول الله فى مكة ، وعادى أهل بيته جميعاً من بنى أمية ، ثم هاجر فيمن هاجر ، ولم يكن يرقى مقام أبى بكر أو عمر فى حسن السياسة وحزم الأمور ، ولم يكن يرقى مقام على بن أبى طالب فى علمه أو شجاعته ، ولكن المسلمون أجمعوا عليه وبايع على أيضاً عثمان ولكن عثمان ضعف أمام أهله ، واجتهد ، وأصاب فى كثير وأخطأ فى كثير .

ولقد أغضب عثمان كبار الصحابة – كحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . ولكن خلافه الأكبر مع أبى ذر الغفارى . وقد بايع أبو ذر عثمان أول الأمر ، ولكن حين كره من عثمان بعض أفعاله ، أخذ أبو ذر يقعد فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ويجتمع إليه الناس ، ويهاجم عثمان . ونقل إلينا اليعقوبى بعض أقواله التى كان يرددها على باب مسجد الرسول « أيها الناس من عرفنى ، فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى ، فأنا أبو ذر الغفارى ، إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » محمد الصفوة من نوح ، فالأول من إبراهيم ، والسلالة من إسماعيل والعترة الهادية من محمد أنه شرف شريفهم ، واستحقوا الفضل فى قوم هم فينا

(١) اليعقوبى تاريخ ج ٤ ص ١٤٧–١٤٨ .

كالسماء المرفوعة ، وكالكعبة المستورة أوكالقبة المنصوبة أوكالشمس الضاحية أوكالقمر السارى أوكالنجوم الهادية أوكالشجرة الزيتونية أضاء زيتها وبورك زبدها ، ومحمد وارث علم آدم وما فضلت به النبيون ، وعلى بن أبى طالب وصى محمد ووارث علمه : أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها أما لو قدمتم من قدم الله ، وأخرتم من أخر الله ، وأقررتم الولاية والوراثة فى أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم ، ولما عال ولى الله ولا طاش سهم من فرائض الله ، ولا اختلف اثنان فى حكم الله ، إلا وجدتم علم ذلك عندكم من كتاب الله وسنة نبيه ، فأما إذا فعلتم مافعلتم ، فذوقوا وبال أمركم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وإذا كان هذا النص منسوباً حقًّا إلى أبى ذر الغفارى–وإن كنت أشك فى هذا–فهو أول نص صريح يذكره صحابى فى حق على المطلق فى الخلافة . ولكن من العجب أن اليعقوبى نفسه يذكر « وبلغ عثمان أن أبا ذر يقع فيه ويذكر ماغير وبدل من سنن رسول الله ﷺ وسنن أبى بكر وعمر ، فسيره إلى الشام إلى معاوية (١) » وهذا أيضاً نص واضح يثبت أن أبا ذر كان يتولى الشيخين أبا بكر وعمر . وأنه كان يأخذ بسنتهما ، ويعيب على عثمان أنه غير وبدل فيها .

وقتل عثمان ولم يقتله أنصار على ، بل إن اليعقوبى يذكر « وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة » ويجمع أيضاً أهل السنة والجماعة ، أن علياً حاول أيضاً الدفاع عن عثمان ، وأرسل الحسن والحسين ليذودا عنه بأنفسهما .

وتولى على بن أبى طالب الخلافة ، وبايعه أقوام وتخلف عنه أقوام ، ووقف مالك الأشتر يقول « أيها الناس هذا وصى الأوصياء ووارث علم الأنبياء » (٢) ويذهب ابن النديم (المتوفى عام ٣٨٣ هـ= ٩٩٣ م) إلى أنه لما خالف طلحة والزبير علياً وأبيا إلا الطلب بدم عثمان ، وقصدهما على عليه السلام تسمى أتباعه حينئذ بالشيعة ، وكان هو يقول شيعتى . وأنه سماهم أيضاً بالأصفياء والأولياء ، وشرطه الخميس ، والأصحاب . ولكنى أرى فى كلام ابن النديم وهو شيعى بعض الغلو (٣) . . . إنه حين اختلف معاوية مع على وأبى المبايعة . وقامت الحرب ، لم يظهر مصطلح الشيعة حتى ذلك الوقت دلالة على اتباع على بالذات ، ذلك أن معاوية يستخدم أيضاً فى هذا الوقت كلمة شيعة منسوبة إليه ، فيقول لبسر بن أبى أرطاة حين وجهه إلى اليمن « أمعن حتى تأتى صنعاء فإن لنا بها شيعة » (٤) ويذكر المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧) أيضاً « سفيان بن عون » وكان من شيعة معاوية (٥) وحين

---

(١) اليعقوبى : تاريخ . . . ج ٤ ص ١٤٧–١٤٨ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٤ ص ١٥٥ .
(٣) ابن النديم : الفهرست : ص ٢٦٣ .
(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٧٣ .
(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩ .

مات على وتولى معاوية ، نرى كلمة الشيعة تظهر ، وذلك حين توفى الحسن ، وبلغ الشيعة ذلك واجتمعوا فى دار سليمان بن صرد وكتبوا إلى الحسين بن على يعزونه على مصابه بالحسن ، ولكن الخطاب نفسه يذكر شيعته وشيعة أبيه ، ولا يذكر الشيعة . وحين قتل معاوية حجر بن عدى وأصحابه قال ساخرًا للحسين بن على : « يا أباعبد الله – علمت أنا قتلنا شيعة أبيك فحنطناهم وكفناهم وصلينا عليهم ودفناهم » فقال الحسين : حججتك ورب الكعبة لكنا والله إن قتلنا شيعتك ، ماكفناهم (١) ولا حنطناهم ، ولا صلينا عليهم ولا دفناهم (١) » ونستخلص من هذا أنه حتى هذا الوقت لم تظهر كلمة الشيعة كمصطلح عرفناه ، فيما بعد ، يسم فرقة معينة بنظام معين .

كان المسلمون فى ذلك الوقت مسلمين فقط ، لاسنة ولا شيعة ، وكان الاختلاف بينهم حول أحقية الأشخاص . فلم تظهر فكرة « الوصاية والإمامة » فكريًا أوأساسيًا فلم تتكون النظريات السياسية اللهم إلا فى فرقة الخوارج – وهى الفرقة الوحيدة التى خالفت إجماع المسلمين فى فكرتهم عن الخلافة .

وحين مات معاوية وأراد الحسين بن على الخروج إلى الكوفة ، لم يستخدم كلمة الشيعة ولا نرى ابن عباس يستخدم كلمة الشيعة أيضاً . إن ابن عباس – حين ينهى الحسين عن الخروج إلى الكوفة يقول له « اشخص إلى اليمن ، فإنها فى عزلة ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وبث دعاتك . » (٢) وذهب الحسين إلى الكوفة ، وقتله أهل الكوفة أنفسهم . ومن المهم أن نلاحظ أيضاً أن فكرة الإمامة أو الوصاية نفسها لم تظهر عنواناً على طائفة معينة فى هذا العصر أيضاً .

ولقد بكى المسلمون جميعاً الحسين بن فاطمة وابن على ، بكاه المسلمون إبان ذلك الوقت اللهم إلا أهل الشام ، ويبكيه المسلمون سنيهم وشيعيهم حتى الآن ، ويلعنون قاتله ، ويرون فى موته صفحة الشهادة العظمى .

وتكونت الشيعة حقًا بعد مقتل الحسين عليه السلام ، فرقة دينية تتدبر الأمر ، يقول المسعودى « وفى سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسن فلم يغيثوه ، ورأوا أنهم قد أخطأوا كثيراً بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه ، ولمقتله إلى جانبهم فلم ينصروه ؛ ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم سليمان بن صرد الخزاعى . . . إلخ (٣) ، ووصلوا إلى موضع بالعراق يقال له عين الوردة ، يطالبون بدم الحسين بن على ، ويعملون بما أمر الله به « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم . فتاب

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٠ .

عليكم ، إنه هو التواب الرحيم » وقتلوا جميعاً فيما تجمع المصادر ، غير أن الكلمة التى غلبت عليهم هى « التوابون » .

وظهرت كلمة الشيعة الحسينية على يد المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وهى الشيعة التى تنتسب إلى محمد بن على بن أبى طالب المشهور بابن الحنفية . وقد اجتمعت عليه الشيعة فى الكوفة ، وقتل قتلة الحسين جميعاً حتى قتل .

وفى الكوفة بعد مقتل المختار بن أبى عبيد. أخذت الشيعة تتكون كفرقة دينية كلامية ، تضع أصول التشيع ، ولكن لم تصل الشيعة إلى وضع مذهبها النهائى إلا فى عهد إمامة جعفر الصادق .

من هذا يتضح لنا أن اسم الشيعة كمصطلح ظهر بعد استشهاد الحسين ، وأن الكلمة كانت تطلق فى أول الأمر على أية مجموعة تلتف حول صحابى من الصحابة ، وأبو خلف القمى يذكر أن أول الفرق الشيعية المسمون شيعة على فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وبعده ، المعروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته ، المقداد وسلمان وأبو ذر وعمار ، « وهم أول من سميوا باسم التشيع من هذه الأمة » ولكنه يتناسى أن معاوية – عدو على – أطلق أيضاً على أنصاره كلمة الشيعة . وقد أرادت الشيعة أن تمجد اسمها ، وذهبوا إلى أنه قديم ، ذكره القرآن ، شيعة نوح وابراهيم وموسى وعيسى والأنبياء [١]. وهذا تمجيد للفظ فقط ، وهيام فيه . وستفعل الإسماعيلية هذا أيضاً ، حين تحاول أن تثبت أن مصطلح الإسماعيلية قديم أيضاً ، أقدم من الإسلام بكثير .

---

(١) أبو خلف القمى : الفرق . ص ١٥ .

الفصل الثالث

قداسة على عند الشيعة الأوائل

السبئية

أضفى الشيعة جميعاً على على بن أبى طالب قداسة خاصة تأرجحت بين كونه وصياً ووليّاً وإماماً ومهدياً ونبياً وإلهاً . وسنحاول أن نعرض فى هذا الفصل متتبعين المنهج التاريخى ، لظهور العقائد المختلفة الشيعية فى على بن أبى طالب . ولعل من المهم أن نشير هنا إلى الحديث النبوى الذى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى « يهلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال » :

وأول صورة نجدها للغلو فى على هى صورة السبئية . ونحن نهمل تماماً تلك الآثار الكثيرة التى وضعها الشيعة – معتدلة وغلاة – على لسان الصحابة من أنصار على والتى تعلو به إلى مراتب القداسة العظمى ، والتأليه . ومن المؤكد أن تلك الآثار موضوعة ، وهى تساوى تماماً فى تفاهتها الروايات المختلفة عن قداسة معاوية نفسه أوحتى إخلاصه للإسلام كدين ، فقد دعا النواصب معاوية « خال المؤمنين » وذلك لأن أخته أم حبيبة بنت أبى سفيان كانت زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحن نضرب صفحاً عن تلك الموضوعات كلها : لنتفحص السبئية ونعرض لآرائها .

نسبت السبئية إلى عبد الله بن سبأ . وتجمع المصادر السنية والشيعية أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً يمنياً فأظهر الإسلام ، ويرى الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م .) أنه أسلم فى السنة السابعة من خلافة عثمان بن عفان (١). وأخذ ينتقل بين الأمصار – من صنعاء إلى الحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ، ثم استقر فى مصر . ويقول ابن كثير « إن سبب تألب الأحزاب على عثمان أن رجلا يقال له عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار إلى مصر فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه ، مضمونه أنه يقول للرجل أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ فيقول الرجل : بلى ! فيقول له : فرسول الله ﷺ أفضل منه ، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى بن مريم عليه السلام . ثم يقول : وقد كان أوصى إلى على بن أبى طالب . فمحمد خاتم

---

(١) الطبرى : تاريخ ... ج ١ ص ٢٨٥٩ .

الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . ثم يقول : فهو الأحق بالإمرة من عثمان ، وعثمان معتد فى ولا يته ماليس له ، فأنكروا عليه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » فهنا يظهر عبد الله بن سبأ فى مصر ينادى بمهدية محمد ﷺ وبالوصاية (وصاية الرسول ﷺ لعلى) وينادى بعزل عثمان لأنه إمام ظالم ، أى ينادى بالأمر بالمعروف وبالنهى عن المنكر ، أى أنه ينادى بمبدأين يهوديين وبقاعدة إسلامية .

وعبد الله بن سبأ يدعى أيضاً بابن السوداء وهنا يظهر ابن السوداء روميا . فيقول ابن كثير « خرج أهل مصر على عثمان فى أربع وفاق على أربعة أمراء . . . ومعهم ابن السوداء وكان أصله روميًّا ، فأظهر الإسلام[١] » ويرى البغدادى (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ= ١٠٣٧ م) أن ابن السوداء كان روميا من أهل البصرة وكان يعين السبأية على قولها[٢] ، ثم يذكر أنه أظهر الإسلام « وأراد أن يكون له فى الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد فى التوراة أن لكل نبى وصياً وأن علياً رضى الله عنه وصى محمد ﷺ وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء . فلما سمع ذلك منه شيعة على قالوا لعلى ؛ إنه من محبيك فرفع على قدره وأجلسه تحت منبره[٣] » . ونرى هنا صورة شخصية أخرى كوفية أو بصرية ، بينما من الثابت أن عبد الله بن السوداء وعبد الله بن سبأ هما شخصية واحدة . ويحاول الطبرى أن يجعل من عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية ، وأنه هو الذى أثر فى أبى ذر ، وأنه قابله فى الشام وقال له « يا أبا ذر — ألا تعجب إلى معاوية يقول — المال مال الله . ألا إن كل شىء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين [٤] وهنا تصوير لابن سبأ بأنه هو الذى ألهم فكرة « الكنوز » لأبى ذر . ثم يذكر الطبرى أن ابن سبأ استطاع أن يؤثر فى محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ، كما أن عمار بن-ياسر قد وقع أيضا فى حبائله وأثار الجميع على عثمان ، ويحاول البغدادى أيضا أن يضع عبد الله بن سبأ فى إطار تاريخى محدد فيقول : « وقد روى عن عامر بن شراحيل الشعبى أن ابن سبأ قيل له إن علياً قد قتل . فقال : « إن جئتمونا بدماغه فى صرة لم نصدق بموته ولا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها » وهذه الطائفة تزعم أن المهدى المنتظر إنما هو على دون غيره [٥] » وهنا محاولة لربطه برواية عن أحد كبار التابعين . ويذكر أيضا إمام المذهب الأشعرى ومؤرخ العقائد الإسلامية السبأية أصحاب عبد الله بن سبأ ، وأنهم يزعمون أن علياً لم يمت ، وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، بل إن السبأية تقول إنه قال لعلى عليه السلام . أنت أنت ، وأن السبأية تقول بالرجعة وأن الأموات يرجعون إلى الدنيا [٦].

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦٨ .
(٢) نفس المصدر السابق ج ص ١٧٣ .
(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٤٤ .
(٤) الطبرى ، تاريخ . . ج ١ ص ٢٨٥٩ .
(٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .
(٦) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٥ .

وسنرى فيما بعد أن نداء « أنت أنت » ينقلب نداء غنوصيا ، ويعتبر نداء تلبية ، حين يرى الغنوصيون من الشيعة صورة على فى مظاهر كونية يتجلى لهم فيها وتتوالى ظهوراته ، فى مظاهر كونية كالقمر ، العرجون القديم ، حين ظهوره للخلائق .

ويظهر اسم عبد الله بن سبأ مرة ثانية فى مشارف الكوفة مع قتلة عثمان .

ثم يذكر البغدادى أنه حين بلغ على غلو ابن سبأ أو ابن السوداء هم بقتله ، ولكن ابن عباس نهاه عن ذلك خوفاً من أن يقال إن عليا يقتل أتباعه وخوفاً من الفتنة ، فنفاه على إلى المدائن(١) وإننا لنعلم فعلا أن المدائن كانت فيما بعد من مراكز الشيعة الغالية .

أما مؤرخو الشيعة الأقدمين ، فقد اعتبروا عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية لاشك فيها . ويذهب سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعرى القمى (المتوفى سنة ٣٠١ هـ) إلى أن أول من قال بالغلو فى على هو « عبد الله بن سبأ » ويذكر أن اسمه عبد الله بن وهب الراسبى الهمدانى ، وأن مما ساعده على نشر آرائه عبد الله بن حرس وابن أسود ، وأن هذين الأخيرين كانا من جلة أصحابه . ويذكر أبو خلف أن ابن سبأ كان أول من أظهر الطعن على أبى بكر وعمر وعثمان والصحابة ، وأعلن التبرأ منهم ، وأن الإمام علياً نفسه أمره بهذا . وأن التقية لاتجوز ولا تحل ثم أظهر الغلو بعد ذلك فى على ولما بلغ الأمر عليا ، استدعى ابن سبأ وسأله فأقر ، فأمر على بقتله ، فاجتمع الناس من كل ناحية وصاحوا : يا أمير المؤمنين أتقتل رجلا يدعو إلى حبكم أهل البيت ، وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك فسيره على إلى المدائن . ويذكر أبو خلف القمى نصاً آخر أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى عليا . وأنه كان يقول فى يهوديته أن يوشع بن نون وصى موسى ، فقال فى إسلامه بعد وفاة الرسول فى على بمثل هذه المقالة . وهو أول من شهد بالقول بفرض إمامة على وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه وكفرهم . ويرى ابن خلف أن من خالف الشيعة استنتجوا من هذا أنه الرفض — ويبدو أن الرفض هنا بمعنى رفض الشيخين — مأخوذ من اليهودية (٢) ويذهب معاصره النوبختى(٣) (المتوفى بين عام ٣٠٠ و ٣١٠) إلى نفس الرأى . ويكاد ينقل نفس النصوص ، وهى كلها ، تؤيد ثبوت شخصية عبد الله بن سبأ كشخصية تاريخية واقعية .

أود أن أنتهى من كل هذا ، وقبل أن نحدد تحديداً منهجياً آراء ابن سبأ أن ابن سبأ يظهر فى كتب أهل السنة والجماعة كما يظهر أيضاً فى كتب الشيعة كشخصية تاريخية حقيقية ، ولكن كاتب الشيعة

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٤٤ .

(٢) سعد بن عبد الله أبى خلف الأشعرى : كتاب المقالات والفرق (نشرة الدكتور محمد جواد مشكور ١٩٦٣) ص ٢٠

(٣) النوبختى : فرق الشيعة . ص ٢٢ ، ٢٣ .

الكبير المعاصر الأستاذ الدكتور على الوردى يقدم لنا فى براعة نادرة تحليلا بارعاً لقصة عبد الله بن سبأ وينتهى إلى إنكار وجود هذه الشخصية إطلاقاً ويحاول أن يثبت أن ابن سبأ ، هو هو عمار بن ياسر ، ثم حمل النواصب من أعداء البيت العلوى ابن سبأ تلك الشخصية الوهمية – تلك العقائد الناشزة المنتشرة فى كتب العقائد والتى لعنها أهل السنة والجماعة جميعاً ، كما لعنها الشيعةالإمامية أيضاً(١) وكذلك فعل الدكتور كامل مصطفى الشيبى فى بحثه الرائع « الصلة بين التصوف والتشيع » . وقد أبرز وثائق جديدة تبين التطابق التام بين شخصيتى عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر(٢)، ثم إن نسب أعداء الشيعة – من الأمويين إلى شخصية ابن سبأ أو بمعنى أدق شخصية ابن ياسر تلك الآراء الغالية ، التى لم ينطق بها أبداً .

ومن المحتمل أن تكون شخصية عبد الله بن سبأ شخصية موضوعة ، أو أنها رمزت إلى شخصية ابن ياسر، كما فعل الأمويون بكلمة أبى تراب والترابيين، وقد كان كنية أبى تراب إحدى كنى على ، وخدع معاوية الطليق والأمويون معه أهل الشام بدعواهم أنهم يحاربون أبا تراب والترابيين . ومن المحتمل أن يكون عبد الله بن سبأ هو مجرد تغليف لاسم عمار بن ياسر وبخاصة أننا نرى زياد بن أبيه يصم حجر بن عدى وأصحابه بالسبأيين فى رسالته إلى معاوية . وليس من المعقول قطعاً ، أن يكون حجر بن عدى الصحابى الكبير من أتباع يهودى يفسد على المسلمين دينهم . أرى أن كل هذا محتمل ، وأن الأمويين أخفوا اسم عمار بن ياسر الصحابى الكبير تحت اسم ابن سبأ حتى لا تثور ثائرة أهل الشام ، حين يعلمون أن ابن ياسر والملتفين حوله هم أتباع على ولكن لاشك أن آراء السبأية المتغالية وجدت ووجدت صدى لدى الطائفة التالية لها فى الغلو وهى الكيسانية . ولا يمكن أن تظهر الآراء فجأة فى مجتمع من المجتمعات ، بل لابد لها من أرض تنمو فيها ، وتزدهر ، وتورق . وهذا ما حدث تماماً فى الآراء السبأية . أو بمعنى أدق إنى أقول – إنه من المرجح أن يكون عبد الله بن سبأ هو عمار بن ياسر ، ومن المرجح أن النواصب حملوا كذباً عمار بن ياسر كل تلك الآراء التى لم يعرفها قط ولم يقل بها قطعاً . ولكن من المؤكد أن كثيراً من آراء السبأية قد ظهر إبان ذلك الوقت ووجدن بيئة صالحة للنمو . ولا يعنينا أبداً إذا كانت هذه الشخصية قد ظهرت أم لم تظهر . وإنما ما يهمنا أن نقرره أن المجامع اليهودية من ناحية والغنوصية من ناحية أخرى وجدت فى انقسام المسلمين إبان ذلك الوقت فرصة لا تعوض لإلقاء بذور الفتنة بينهم ، فألقت فى مجتمع الكوفة والمدائن بآراء ، يمكننا أن نطلق عليها الآراء السبأية ، سواء أكان صاحب الاسم حقيقة أم أكذوبة .

---

(١) الدكتور على الوردى : وعاظ السلاطين ص ٢٧٤ – ٢٧٨ .

(٢) الدكتور كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ، الجزء الأول ص٢٦ – ٣٩ .

أما الآراء السبأية فهي أولا : الوصية ، أى أن عليا وصى للرسول ، فالإمامة له نصاً « وكان فى اليهودية يقول فى يوشع بن نون وصى موسى »[١] ثم أعلن ألوهية « على » وذهب أتباعه إلى على فى الكوفة وقالوا له « أنت أنت » « فلما سألهم جلية الأمر ، قالوا له أنت الله ، فأوقد على ناراً لهم ودعا مولاه قنبرا واستتابهم ، فلم يتوبوا ، فأمره بإلقائهم فى النار . وكانوا يصيحون : أنت الإله حقاً . فإنه لايعذب بالنار إلا الله . وكان على يردد .

ولما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت نـــاراً ودعوت قنبرا[٢]

ثانياً : معراج على الروحى – أى الصعود إلى السماء يقول البغدادى « لما قتل على ، زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطاناً تصور للناس فى صورة على وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد عيسى بن مريم عليه السلام ، وكما كذبت اليهود والنصارى فى دعواها قتل عيسى : كذلك كذبت النواصب والخوارج فى دعواها قتل على ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبهوه بعيسى . كذلك القائلون بقتل على رأوا قتيلا يشبه عليا . فظنوا أنه على ، وعلى قد صعد فى السماء وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه[٣] ». ويذكر أبو خلف القمى أنه حين اتصل خبر موت على بعبد الله ابن سبأ وجماعته فى المدائن ، قالوا لمن أخبرهم بوفاته : كذبت يا عدو الله لو جئتنا بدماغه فى سبعين صرة فأقمت على قتله سبعين عدلا ما صدقناك : ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ، وأنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ، ويملك الأرض ، ثم ذهبوا إلى الكوفة واستأذنوا فى الدخول عليه ، فأخبرهم من حضر من أولاده وأهله « سبحان الله ما علمتم أن أمير المؤمنين قد استشهد » قالوا : « إنا لنعلم أنه لم يقتل ولا يموت ، حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه ، كما قادهم بحجته وبرهانه ، وأنه ليسمع النجوى ويعرف ما تحت الديار العتل ! ويلمع فى الظلام ، كما يلمع السيف الصقيل الحسام » ويعلق القمى[٤] بأن هذا مذهب السبأية ومذهب الحريبة أصحاب عبد الله بن عمر بن حرب الكندى فى على .

ثالثاً : ومن آراء السبئية أن علياً إله العالمين ، وأنه توارى عن خلقه سخطاً منه عليهم وسيظهر . ويرى البعض منهم أن علياً فى السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه ، وإذا سمعوا صوت الرعد أو رأوا السحاب يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين . بل ويضعون على لسان إسحاق بن سويد العدوى أنه قال :

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢) الملطى التنبيه ص ٢٥ .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

(٤) ابن خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٠ ، ٢١ والنوبختى : فرق ص ٢٣

برئت من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا يردون السلام على السحاب
ولكنى أحب بكل قلبى وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبا به أرجو غداً حسن الثواب (١)

ويبدو أن هنا أيضاً أول بذور لأفكار التوقف والمهدية والغيبة والرجعة ، والقول بتناسخ الجزء الآلهى فى الأئمة بعد على . ومن المحتمل أن تكون هذه الآراء متأخرة ، وأنها ظهرت من الحريبة كما سنرى بعد .

ويذهب الإسفراييني أخيراً إلى أنه بعد قتل على قام عبد الله بن سبأ يقول لأهل الكوفة « والله لينبطن لعلى فى مسجد الكوفة عينان ، تفيض إحداهما عسلا والأخرى سمنا ، ويعترف منهما شيعته (٢).

هذا مجمل لآراء السبأية . فما هو الحكم الصحيح على تلك الآراء . إنها لا تمثل فى أول الأمر فرقة ، ولكن هى الآراء الفوكلورية محملة بالحشو اليهودى والغنوصى والتى تنتشر ممجدة الأبطال الكبار ، حين يموتون ، ويشعر أتباعهم بالحسرة ، وقد كاد الصاحب الثانى عمر بن الخطاب أن يقع فى نفس الأمر حين علم بانتقال النبى صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى : فأعلن أن محمداً لم يمت ، وأنه إنما رفع إلى السماء ، وأنه سيعود ثانية . قائلا : والله ما مات رسول الله ولا يموت ، وإنما تغيب كما غاب موسى بن عمران عليه السلام أربعين ليلة ثم يعود ، والله ليقطعن أيدى قوم وأرجلهم ، ولكن أبا بكر أسكته وقال « من كان يعبد محمداً فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت ثم قرأ « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » فرجع الناس إلى قول أبى بكر : وقال عمر : والله لكأنى ما قرأتها قط . ثم قال . لعمرى لقد أيقنت أنك ميت ولكنما أبدى الذى قلته الجزع (٣).

لا جرم أن يظهر بعد ذلك وقد اختلط العرب بعلوج الفرس حينئذ وببعض أحبار اليهود وعدد من اليهود المستسلمة وفى أوساط الكوفة تلك الآراء السبأية أو بعض منها ، ثم أضافت النواصب ، الكثير ، منسوباً إلى عبد الله بن سبأ أو عمار بن ياسر.

---

(١) الشهرستانى (المتوفى سنة ٥٤٨-١١٥٣م) الملل والنحل ج ١ ص ٢٩١-٢٩٣ .
(٢) الإسفراييني ، التبصير فى الدين ص ٨٥ .
(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٥ : واليعقوبى تاريخ- ج ٢ ص ٦٥ .

الفصل الرابع

صورة على
عند أهل السنة والجماعة والشيعة المعتدلة

لم يتنازع أبا بكر وعمراً طائفتا المسلمين الكبيرتان ، فبينما تولى أهل السنة والجماعة الشيخين ، أنكرهما الشيعة إنكاراً كاملا ولعنوا من على منابرهم الغاصبين عليًّا إمامته ، حتى يومنا هذا . أما على بن أبى طالب ، فقد تنازعه أهل السنة والجماعة كما تنازعه الشيعة ، تدعيه أهل السنة لهم ويدعيه الشيعة لهم . وأورد هؤلاء على لسانه – إن حقًّا وإن باطلا – أحاديث تؤيد سنيته ، بينما حمله هؤلاء الشيعة مايطيق ومالا يطيق من أحاديث وآثار وآراء تؤيد وجهة نظرهم ، وتثبت ما ارتأوه هم فيه . وسنعرض بإيجاز لرأى كل منهم فيه .

أما أهل السنة فيعلنون أن أسلافهم الأول قد رأوا فى على بن أبى طالب أول غلام آمن ، وقد عاش فى حجر النبوة ورعاه الرسول قبل بعثته ، كما رعته أم المؤمنين الأولى – خديجة – برعايتها وحبها وحدبها ، ووقف الطفل المكى – منذ اللحظة الأولى للنبوة – بجانب صاحبها فى الكبير وفى الصغير . ولا يقل إعجاب أهل السنة عن إعجاب الشيعة به حين تركه الرسول فى فراشه ليلة الهجرة تحرسه الملائكة ، وهو يواجه قريشا العاتية . ثم هاجر إلى المدينة مع فاطمة الزهراء . وبدأت الحروب ، وفتى بنى هاشم يحمل بسيفه المنايا ، يحطم بها عتاولة القرشيين ، ويكلم كل بيت من بيوتهم . وكم فدى الرسول بنفسه فى معظم مواقع القتال . وهو إذن تلميذ محمد صلى الله عليه وسلم الأول .

ويعلن أهل السنة أيضاً أن علياً عالم المسلمين وفقيههم ، مصداقاً للحديث « أنا مدينة العلم وعلى بابها » فقه القرآن كما فقه السنة ، وغاص فى أعماق كل منهما وكان فقيه أبى بكر – فيما بعد – كما كان فقيه عمر : ويذهب أهل السنة بلاشك إلى أنه أفقه من الصاحبين ، بل من الصحابة جميعاً وقد عاش عند أهل السنة والجماعة عيشة إيثار وإنكار لذاته فى حياة كل من الشيخين .

ويرى أهل السنة والجماعة أنه رابع الخلفاء الراشدين . وأن الخلفاء الثلاثة قد سبقوه بفضل إمارة المؤمنين بعد الرسول ﷺ . ويعلن أهل السنة أيضاً أنه كان على حق فى قتاله أصحاب الجمل ومعاوية

وأخيراً – إنه الوحيد من بين الصحابة الذى احتفظ بكلمة الإمام فى كتب أهل السنة ، ودعاه الحسن البصرى « ربانىّ هذه الأمة » وبرغم كل ما قام به الأمويون من دعاية ، وما أعلنه النواصب من عداوة لعلى ، فقد احتل ابن عم الرسول وصهره عند أهل السنة والجماعة المكان الأول فى الحياة الروحية للمسلمين . رفعه أهل السنة والجماعة – على جميع الصحابة بلا استثناء – روحيًّا على مقام كل من أبى بكر وعمر ، ولكن سياسيًّا وضع فى النسق رابع خلفاء محمد ﷺ .

أما الصوفية ، وهم فى مجموعهم أهل سنة وجماعة ، فكان الإمام على رأس سندهم وقمة سلسلتهم ، وإليه نهاية الطريق . ووضعوا على لسانه آثاراً وسنناً كثيرة ، ونسبوا إليه أسرار العلم الباطن ، وإليه يتشوف الصوفى السنى .

إن ما نستخلص من هذا أن أهل السنة والجماعة – اللهم إلا السلف المتأخرون ، رأوا فى أبى بكر الصاحب الأول – وصاحب الصلاة على الخصوص ، وفى عمر مؤسس الدولة الإسلامية وواضع الأسس الحقيقية لها ومنشؤها ، وفى على صاحب الروح .

أما الشيعة – فقد أطلقوا أيضاً على لسان بعض أسلافهم – من كبار الصحابة الأحاديث النبوية التى تثبت إمامته بعد الرسول ﷺ وبعض تأولات الشيعة صحيحة وبعضها غير صحيح ، كما قـروا أيضاً كما قلت من قبل بعض الآيات القرآنية تفسيراً خاصاً يؤدى إلى القول بإمامة على وخلافته منذ اليوم الأول . ثم أثبتوا له الوصاية ، « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » والحديث الآخر « السابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب ياسين حبيب النجار ، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب وهو أفضلهم » أى أفضل أوصياء الأنبياء جميعاً .

وذهب الشيعة الأوائل إلى ولاية على وعصمته وأنه وارث العلم النبوى الخاص الذى لم يطلع عليه النبى غيره حين أدركته منيته . وفى الكوفة أيضاً آمن الشيعة أن الرسول ﷺ ترك لعلى كتباً خاصة ، ثم حددت الشيعة المتأخرة هذه الكتب بالكتب الآتية : مصحف فاطمة ، وعلى هامشه علم ماكان وما يكون وما هو كائن . وقد أملاه النبى على وصية صاحب الأمر بعده ، وكتاب الجفر الجامع أو الجامعة وفى هذه الجامعة صحف الأنبياء ففيه صحيفة آدم أورثها لابنه شيث ، فأضاف إليها ، ثم إدريس ، ثم صحف إبراهيم وموسى وعيسى ثم خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وصحفه ، وقد أورث محمد ﷺ هذا إلى على خاتم الأوصياء ، ثم كتابان آخران هما – الجفر الأبيض والجفر الأحمر ، أما الجفر الأحمر فهو خاص بالقائم ، كيف يقضى بالسيف على أعدائه ، أما الأبيض ، ففيه جزءان – كتب الأنبياء وصحفهم ، ثم الحلال والحرام ، ثم تفسير الاسم لأعظم وأسراره والصحيفة .

وصور الشيعة عليا وبيده كرامات لاتقل عن المعجزات ، وعددوا هذه الكرامات ، بل تكلموا

عن بدء وجوده « كنت أنا وعلى بن أبى طالب قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام فقط ، فلما خلق الله آدم ، انتقل النور فى الأصلاب لطاهرة والأرحام الزكية حتى صار فى عبد المطلب ، فانقسم النور قسمين : قسم فى عبد الله وقسم فى أبى طالب ، فكان لى النبوة ولعلى الوصية » .

وعين الشيعة موضع على فى تلك الحادثة الممتازة ، حادثة المعراج . فقد سأل محمد ﷺ – بأمر ربه – النبيين عن سبب رفعهم إلى هذه الدرجة ، فشهدوا جميعاً « بأننا رفعنا بفضل نبوتك وإمامة على بن أبى طالب والأئمة من صلبك » فجاء النداء أن انظر إلى يمين العرش – فنظرت فإذا بأشباح على وبنيه وحفدته وهم يصلون فى بحر من النور فقال الله تعالى « هؤلاء حججى وأوصيائى وأوليائى ، وبنتقم آخرهم من أعدائى ، « وفى السماء الرابعة رأيت ملك الموت ، فأخبرنى أنه مأمور بقبض أرواح الكائنات إلا روحى وروح على ؛ فإن روحيكما سيقبضهما الله بنفسه بيد القدرة » ورأيت ليلة المعراج أنه قد كتب على كل حجاب من النور وكل قائمة من العرش – أن لا إله إلا الله – محمد رسول الله ، على ابن أبى طالب أمير المؤمنين ، وقد أعطى الله آدم خمسة عشر حرفاً من حروف الاسم الأعظم . ونوحاً ثمانية ، وإبراهيم حرفا ، وموسى أربعة ، وعيسى اثنين ، وأعطى محمداً اثنين وسبعين فسلمها علياً .

هذه نظرية الشيعة المعتدلة ، فى أوساط الكوفة ، والمدائن ، وفى العراقين على العموم .

وبات على ليلة اغتياله ، وهو يعلم تماماً أنه مغادر الدنيا ، ولم يزل يمشى بين الباب والحجرة ، وهو يقول « والله ماكذبت ولا كذبت وأنها الليلة التى وعدت (١) » . وكان يردد « مايحبس أشقاها ، فو الذى نفسى بيده لتخضبن هذه من هذه » ، « وخرج على فى الغلس للصلاة – فتبعه أوز – كن فى الدار فتعلقن بثوبه فحاول بعض أهله منعهن . فقال ويحك – دعهن – فإنهن نوائح » وهجم عليه عبد الرحمن بن ملجم وقتله (٢) ، ولما مات قام الحسن عليه السلام خطيباً ثم قال « ألا إنه قد مضى فى هذه الليلة رجل لم يدركه الأولون ولن يرى مثله الآخرون » من كان يقاتل وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن شماله – والله لقد توفى فى الليلة التى قبض فيها موسى بن عمران ورفع فيها عيسى بن مريم « وأنزل القرآن » ألا وإنه ما خلف صفراء ولا بيضاء . ثم قام القعقاع بن زرارة على قبره وقال « رضوان الله عليك يا أمير المؤمنين ، فو الله لقد كانت حياتك مفتاح خير ، ولو أن الناس قبلوك لأكلوا من فوقهم ولكنهم غمطوا النعمة وآثروا الدنيا على الآخرة (٣) » ودفن على فى النجف قريباً من الكوفة . وأعلن الشيعة الإمامية المعتدلة أن النبى إبراهيم ذكر « أنه سيكون فى هذا المكان قبر عليه مشهد عظيم يفوز به سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم . وهذا المكان هو وادى السلام وهو

---

(١) اليعقوبى : تاريخ . . ج ٥ ص ٢٦٧ / ٥٣٨ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ١٩ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٥ ص ١٥٥ .

جزء من جنة الله الباقية ، وإليه تحشر أرواح الشيعة ، وكأنى بهم قعود يتحدثون » .

وإلى هذا القبر يجمع الشيعة الإمامية من كل فج ، ويقفون أمامه باكين الإمام المعصوم ، أول الأئمة الصابر على الغصب ، المقتول ظلماً وعدواناً ويلتمسون منه الشفاعة فى اليوم الآخر ، ومن قبره الشفاء فى هذه الحياة الدنيا ، وينادون صاحب العصا والميسم ، وقسيم الجنة والنار ، ووارث النبيين ويهتف الشيعى منهم « أشهد أنك كلمة التقى والأصل الثابت » .

ومن العجب ، أن هؤلاء الشيعة ، قبل أن يخطوا باب المشهد يتجهون نحو يثرب مدينة الرسول محمد ﷺ ويصيحون « أتأذن يارسول الله أن أدخل على علىّ ابن عمك وزوج ابنتك » ولكن حين يتخطون الباب الخارجى ويقفون أمام جدث الإمام يرددون « السلام على ذات الله العليا ، السلام على ذات الله القائمة بالسنن ، السلام على المن والسلوى » ،

obeikandl.com

الفصل الخامس

المختارية والكيسانية

مقدمات الشيعة الحنفية

تولى «معاوية الطليق» وابن «آكلة الأكباد» – كما دعاه على وشيعته من بعده – الخلافة بعد مقتل على بن أبى طالب ، وتنازل الحسن بن على له عن الخلافة مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ «إن ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به فئتين كبيرتين من المسلمين» وصالح معاوية الحسن على أن يكون الأمر له من بعده . ولكن معاوية لم يكن يهدأ له بال وحسن حى ، وبيعته له قائمة بعده ، ولذلك قرر قتله وتخلص منه بالسم (عام ٤٦ هـ) – فيما يقول الشيعة – ولست أبرأ معاوية . فلم يكن الرجل أبدا مسلماً تام الإسلام كان جاهليا بمعنى الكلمة وكان على استعداد لارتكاب كل موبقة فى سبيل ولده يزيد ، غير أن أقدم مصدر شيعى بين أيدينا يقرر أن الحسن مات من جراحته التى أصيب منها فى مظلم ساباط بعد عودته من محاربة معاوية ولم يذكر أبداً قصة سمه (١). وبكت الشيعة فى الكوفة إمامها الثانى ، سيد شباب أهل الجنة وإحدى ريحانتى رسول الله وابن فاطمة الزهراء .

ومات الطليق آخر الأمر بعد أن قتل جماعة من كبار الصحابة صبرا – كحجر بن عدى وأصحابه . مات بعد أن بايع الناس بالخلافة لابنه يزيد ، وانتهى الأمر إلى ملك غاشم جاهلى يتوارثه الأمويون واحداً بعد واحد . ولم يقبل الحسين بن على بيعة يزيد وخرج إلى الكوفة ، إلى أنصاره وأنصار أبيه من قبل . ولكن مالبث القوم أن خدعوه وتخلوا عنه ، بل إن عبيد الله بن زياد أمير يزيد على الكوفة أرسل من أهل الكوفة أنفسهم من قام بقتله وقتل أولاده وأغلب الهاشميين معه . وكانت مذبحة (عام ٦١ هـ) لم ير المسلمون لها مثلا ، وقد لعن المسلمون جميعاً يزيد .

وخرجت نساء بنى هاشم حواسر يبكين الحسين .

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... نصف أسارى ونصف ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بشر فى ذوى رحمى (٢)

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٣–٢٤ . (٢) المسعودى : مروج ج ٢ ص ٩٥ .

وقد بكى المسلمون الحسين بن على حتى يومنا هذا ، واعتبروه سيد الشهداء جميعاً .

أما الشيعة المعتدلة ، فقد ذكروا أن الرسول ﷺ أخبر بمصرعه ، وأن الملائكة جاءت بتربة بيت المقدس إلى كربلاء ليدفن فيه الحسين ، وأنهم هيئوا قبره قبل استشهاده بألف سنة ، وذكر الإمام الأول على حين مرّ بكربلاء « أن مائة نبي ومائة وصي ومائة من أبناء الأنبياء يشتاقون لأن يدفنوا هنا » .

ولقد كان مقتل الحسين أكبر حادث فى تاريخ الإسلام السياسى والروحى . ولقد أصاب خلص المسلمين ذلة رانت عليهم أمداً طويلا ، وأطلقت الأشعار فى هذا فيقول سليمان بن قبة :

فإن قتيل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلت

ولكن ما لبث الشعور العارم أن انطلق فى الكوفة حين قام التوابون بحركتهم الفدائية الكبرى وهم يقولون « أقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا » . وقد قتل التوابون – كما قلنا من قبل – فى عين الوردة ، وتركوا للمسلمين حتى الآن أعظم المثل فى الدفاع عن العقيدة والفناء فيها .

وفى ذلك الوقت ظهر المختار بن أبى عبيد (المتوفى سنة ٦٧ هـ) وكون الشيعة الحسينية . كان يزيد قد مات ، وابن الزبير على مكة يتحكم أيضاً فى أعناق المسلمين ويلحد فى آيات الله فى البيت الحرام ، ولا يصلى على الرسول نكاية فى آل بيت رسول الله . وكان الإمام الرابع على زين العابدين بن الحسين قد اعتزل الناس وكذلك فعل محمد بن الحنفية الابن الثالث لعلى بن أبى طالب من غير فاطمة الزهراء . وكان محمد بن الحنفية صاحب راية على يوم صفين ، وعلى جانب كبير من العلم والدين .

ظهر المختار بن أبى عبيد إبان هذه الحوادث كلها . وقد حاول الزبيرية والأموية أن يشوهوا حركة المختار ابن أبى عبيد تشويهاً دينيًّا ، وأن يتبعوا أخبار الرجل بكل نقيصة ، وأن يصبغوا عليها صبغة سبأية بل أشد ونسبوه أو خلطوا بينه عن سوء قصد وبين الكيسانية ، كما خلطوا من قبل بين أنصار على المخلصين وبين السبأية .

أما عن نسبه فهو ابن أبى عبيد الثقفى ، وكان أبو عبيد من كبار الصحابة ، وكان يسكن الطائف ، ثم انتقل إلى المدينة فى زمن عمر بن الخطاب ، وكان أبو عبيد من محبى على ، وقد ذهب بابنه إليه ووضعه بين يديه فمسح علىٌّ على رأسه وقال «كيس ، كيس » فلزمه هذا الاسم (١) . ثم استشهد أبو عبيد وكان قائد المسلمين فى واقعة الجسر . أما عن المختار فقد بقى فى المدينة منقطعاً إلى بنى هاشم . ثم انتقل إلى البصرة . وقد ذكر ابن كثير عنه أنه كان خارجياً ثم زبيرياً ، ثم شيعيًّا من أنصار على زين العابدين ، ثم تركه إلى محمد بن الحنفية ونادى بإمامته وكل هذا خطأ تاريخى . فالرجل كان من محبى البيت العلوى – كما رأينا – خرج على رأس جماعة من السلاح فى البصرة يريد نصر الحسين بن على عليه

(١) المجلسى : بحار الأنوار ج ٩ ص ١٧١ – ١٧٧ .

السلام فأخذه عبيد الله بن زياد وضربه بالقضيب على عينه فشترها ثم سجنه وكان يقول فى سجنه . . «حتى إذا أقت عمود الدين وشفيت صدر المؤمنين ، وأدركت ثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى (١) . وتدخل عبد الله بن عمر بن الخطاب زوج أخت المختار فى أمره وأرسل إلى يزيد بن معاوية فيه ، فأمر يزيد عبيد الله بإطلاق سراحه وإخراجه من البصرة . وعاش المختار فى الطائف . فلما وجد الأمر قد آل إلى عبد الله بن الزبير فى أرجاء الحجاز ، شخص إلى الكوفة فوصل إليها وقد خرج سليمان بن صرد يطلب بدم الحسين عليه السلام واجتمعت إليه الشيعة فى الكوفة ، ولم تكن لتجتمع عليه لو لم تعلم أنه من أكبر المخلصين لآل البيت فقال لهم : إن محمد بن على ابن أبى طالب بعثنى إليكم أميراً وأمرنى بقتال المحلين ، والطلب بدماء أهل البيت المظلومين — وإنى والله قاتل ابن مرجانة والمنتقم لآل رسول الله ﷺ ممن ظلمهم (٢) .

ويذهب اليعقوبى — وهو أقدم مصدر تاريخى بين أيدينا إلى أن طائفة من الشيعة صدقته . ولم تصدقه طائفة وإنما خرجوا إلى محمد بن الحنفية ليسألوه عن حقيقة الرجل . فقال لهم «ما أحب إلينا ممن طلب بثأرنا وأخذلنا بحقنا وقتل عدونا» فانصرفوا إلى المختار وبايعوه (٣) . وهذه دلالة على أن المختار بن أبى عبيد كان رجل محمد بن الحنفية ويقول ابن طباطبا «كان المختار رجلاً شريفاً فى نفسه عالى الهمة . كريماً» (٤) واستولى المختار على الكوفة ، وأخرج عامل عبد الله بن الزبير عنها سنة ٦٦ . ونادى قائده المشهور إبراهيم بن مالك الحارث بن الأشتر «يالثأرات الحسين» وتوجه بأمر المختار إلى الموصل لإنقاذها من جيش عبد الملك بن مروان وكان يقود جيش هذا الأخير «عبيد الله بن زياد قاتل الحسين» ومعه من عاونه فى قتل الإمام الشهيد . وانتهت الموقعة بانتصار جيش المختار وقتل قتلة الحسين جميعاً . وأرسلت رؤوسهم إلى محمد بن الحنفية وتتبع المختار بن أبى عبيد كل من شارك فى قتل الحسين وقتله .

وكان الذئب الغادر عبد الله بن الزبير يحكم مكة فى ذلك الوقت . وقد تحامل على آل الرسول ، وأظهر لهم العداوة والبغضاء — بل إنه — فى قلب البيت الحرام ترك الصلاة على رسول الله ﷺ فى خطبته . فقيل له : لم تركت الصلاة على النبى ؟ فقال : إن له أهل سوء يشرأبون لذكره ، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به .

ويذكر اليعقوبى أن عبد الله بن الزبير أخذ محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأربعة وعشرين رجلاً من بنى هاشم وحبسهم فى حجرة زمزم . وأقسم ليبايعن أوليحرقنهم بالنار . وكتب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٣ ، ١٠٨ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٥ .
(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٧ .
(٤) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٩ .

محمد بن الحنفية إلى المختار بن عبيد من سجنه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن على ومن قبله من آل رسول الله إلى المختار بن أبى عبيد ومن قبله من المسلمين . أما بعد : فإن ابن الزبير أخذنا فحبسنا فى حجرة زمزم وحلف بالله الذى لا إله إلا هو لنبايعنه أو ليضرمنها علينا بالنار فياغوثاه » فأرسل المختار بن أبى عبيد جيشاً بقيادة أبى عبد الله الجدلى – فى أربعة آلاف راكب ، فقدم مكة ، فكسر الحجرة ، وأنقذ آل بيت رسول الله . وقال لمحمد بن على : دعنى وابن الزبير . أى أنه أراد قتل ابن الزبير ، ولكن محمد ابن الحنفية أبى أن يدع أبا عبد الله الجدلى يقتل ابن الزبير وقال : لا أستحل من قطع رحمه ما استحل منى (١). وأورد المسعودى نفس الواقعة (٢). وخرج محمد ابن الحنفية إلى رضوى وأقام بها . بل إنه فى موسم الحج ، وقف محمد بن الحنفية فى عرفات وقفة أمير المؤمنين .

وتم الأمر لابن الزبير فى الحجاز وأرسل أخاه مصعب بن الزبير لقتال المختار بن أبى عبيد – ودافع المختار عن الكوفة دفاع الأبطال حتى قتل شهيداً فى محبة آل البيت العلوى عام (٦٧هـ–٦٨٦ م) . وقتل مصعب بن الزبير سبعة آلاف من أتباعه من الشيعة الحسينية (٣) غدراً بالسيف وكانت إحدى الغدرات الكبرى فى تاريخ الإسلام ، بل قتل أيضاً زوجة المختار أسماء بنت النعمان بن بشير الصحابى حين رفضت أن تتبرأ من زوجها بعد موته وتلعنه : وقالت : إنه كان تقيًّا نقياً صوّاما ، كيف أتبرأ من رجل يقول ربى الله ، كان صائم نهاره ، قائم ليله قد بذل دمه لله ورسوله فى طلب قتلة ابن بنت رسول الله ﷺ وأهله وشيعته فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس » وحين قدمت للقتل ، قالت : شهادة أرزقها فأتركها كلا إنها موتة ، ثم الجنة ، والقدوم على الرسول وأهل بيته ، والله لا يكون آت مع ابن هند فأتبعه ، وأترك ابن أبى طالب ، اللهم اشهد أنى متبعة لنبيك وابن بنته ، وأهل بيته وشعيته » وقدمت للموت فقابلته بشجاعة نادرة .

كل هذه دلائل واضحة على أن المختار بن أبى عبيد كان رجلاً تقيًّا ممتازاً فى دينه . مقاتلاً فى سبيل أهل البيت . بل إن المختار يعلن فى آخر مواقفه بعد أن قتل محمد بن الأشعث الكندى – وكان أيضاً من قتلة الحسين « طابت نفسى بقتله ، إن لم يكن قد بقى من قتلة الحسين غيره ، ولا أبالى بالموت بعد هذا (٤) .

وقد مدح أهل البيت جميعاً المختار بن أبى عبيد . مدحه شيخ بنى هاشم عبد الله بن عباس فيما يروى ابن الأثير (٥) بل تجمع المصادر السنية أنه كان يرسل المال من خراج العراقين إلى

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٧ .
(٢) المسعودى : مروج ج ٢ ص ١٠٠–١٠١
(٣) نفس المصدر : مروج ج ١ ص ٣٥ .
(٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٢ .
(٥) ابن الأثير : تاريخ ج ٤ ص ٨٣–٨٤ .

عبد الله بن عمر وابن عباس وابن الحنفية وغيرهم فيقبلونه منه . وكان الإمام على زين العابدين يقبل هداياه ومنها أم ولد ولدت له الإمام زيد بن على (١) وقد دعا له الإمام زيد . كما شكره الإمام محمد الباقر على أخذه بثأر الحسين وترحم عليه هو والإمام جعفر الصادق . وليس من المعقول قط أن ينتسب إلى محمد بن الحنفية وفى الآن عينه يضع نفسه فى مرتبة أعظم من مرتبة الإمام . إن الشهرستانى نفسه يذكر أنه انتظم له ما انتظم بأمرين : أحدهما انتسابه إلى محمد بن الحنفية علماً ودعوة والثانى قيامه بثأر الحسين عليه السلام واشتغاله ليلاً ونهاراً بقتال الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين (٢).

هذه حقيقة المختار بن أبى عبيد وقد تنكب الحقيقة الكثيرون من الباحثين، لقد ملأت الزبيرية أولاد الزبير بن العوام الدنيا بالدعاوى الكاذبة حول المختار . وقد كانوا طلاب دنيا أكثر من الأمويين ، بل من الثابت أنهم أفسدوا أباهم ودعوه إلى حرب اقتتل فيها المسلمون قتالاً عنيفاً ، وذكر على بن أبى طالب نفسه أن الزبير بن العوام كان على الحق حتى غيره أبناؤه ،كذلك قامت الأموية بما كان لها من قوة الحكم والسلطان والمال بيث الدعوة ضد المختار بن أبى عبيد فقد حارب الرجل الاثنين حرباً عنيفة وقاتلها فى سبيل حب آل البيت أشد قتال . وتابعه عظماء الكوفة من أمثال عبد الله الحر وإبراهيم بن مالك الأشتر . وهما من عيون رجال الكوفة ، ويقول صاحب الفرق بين الفرق « ودخل فى بيعته عبد الله بن الحر الذى لم يكن فى زمانه أشجع منه وإبراهيم بن مالك الأشتر ، ولم يكن فى شيعة الكوفة أجمل منه ولا أكثر منه تبعاً (٣) » .

إن الخطأ الذى وقع فيه بعض مؤرخى العقائد من الشيعة وأهل السنة أنهم خلطوا بين المختار بن أبى عبيد وبين شخصية أخرى معاصرة له – وهى شخصية كيسان . فيذهب مؤرخ شيعى قديم كأبى خلف القمى ويتابعه النوبختى إلى أن الكيسانية إنما سموا بذلك لأن رئيسهم الذى دعاهم إلى ذلك المختار بن أبى عبيد الثقفى وكان لقبه كيسان . ثم يذكر أيضاً فى فقرة أخرى أنه لقب بكيسان وهو لقب صاحب شرطته (٤) ومرة ثالثة أن محمد بن الحنفية « استعمل المختار بن أبى عبيد الثقفى على العراقين بعد قتل الحسين ، وأمره بالطلب بدم الحسين وثائره ، وقتل قتله ، وطلبهم حيث كانوا ، وسماه كيسان لكيسه ، وما عرف من قيامه (٥) وذهب مؤرخو السنة جميعاً إلى نفس الرأى ، وإن كان البغدادى قد

(١) أبو الفرج الأصبهانى : مقاتل الطالبين ص ٩٢ .
(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٢٢ .
(٣) البغدادى : الفرق ص ١ .
(٤) أبو خلف القمى : كتاب المقالات والفرق ص ٢١ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٢٣ .
(٥) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٦ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٢٧ .

تنبه إلى حد ما إلى حقيقة الأمر فقال «وكان المختار يقال له كيسان وقيل إنه أخذ مقالته عن مولى لعلى رضى الله عنه كان اسمه كيسان (١)» .

ومن هذا نرى أننا أمام شخصيتين مختلفتين ، المختار وكيسان ، ومن الواضح أن البغدادى يحاول أن ينسبه فى النص السالف لكيسان مولى على ، وهذا خطأ فإن كيسان مولى على كان قد مات قبل حركة المختار ، فنحن إذن أمام كيسان آخر متأخر عن عصر الإمام على أو بمعنى أدق أمام شخصية تسمت باسم كيسان مولى على بن أبى طالب .

وقد كشف لنا ظهور كتاب المقالات والفرق لأبى خلف القمى عن حقيقة كيسان هذا . فهو أبو عمرة السائب بن مالك الأسعدى المتوفى سنة ٦٧ هـ وكان يجاور المختار بن أبى عبيد فى سكنه وكان صاحب سره ومؤامراته فلما قام المختار بن أبى عبيد بحركته ، جعله صاحب شرطته (٢) ويذهب الطبرى إلى أنه كان مولى غزينة أو مولى بجيله (٣) . وهو أعجمى فيما يقول الشعبى (٤) . وجاور المختار بن أبى عبيد ، وأنه كان يزكى الشيعة ويهاجم عثمان وضرب لذلك بالسياط (٥) ، ويبدو أنه هو الذى عاون المختار على الطلب بثأر الحسين وقتل أعدائه ، وأنه دله على قتلته ، وتتبعهم بنفسه واحداً فواحداً ويقول الدينورى «إن المختار ولى الشرطة كيسان أبا عمرة ، وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول ، ويتتبع دور من خرج إلى قتال الحسين بن على فيهدمها ، وكان أبو عمرة بذلك عارفاً ، فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار فى لحظة . فمن خرج إليه منهم قتله ، حتى هدم دوراً كثيرة . وقتل أناساً كثيرين ، وجعل يطلب ويستقصى ، فمن ظفر به قتله ، وجعل ماله وعطاءه لرجل من أبناء العجم الذين كانوا معه (٦) ويرى المؤرخون أنه تجاوز المختار فى القول والفعل والقتل ، أى أنه غلا فى عقيدته أكثر من المختار ، كما أنه أيضاً غلا فى قتل أعداء الحسين بن على وقاتليه . وكان يقول إن المختار وصى محمد بن الحنفية وعامله ، وكان يكفر من تقدم علياً ، ويكفر أهل صفين وأهل الجمل . بينما كان المختار لا يكفر من تقدم عليه ولكنه كان يكفر أهل صفين وأهل الجمل (٧) وهذه المقارنة بين الاثنين تستدعى النظر ، كان المختار ابناً لصحابى كبير ، نشأ فى رحابه ، ورأى كيف استشهد أبوه فى عهد الشيخين فتولاهما ، ولكنه أحب عليا ، فكفر كل من حاربه منذ ولايته الفعلية ، بينما أحب أبو عمرة عليا حبا ملك عليه كل نفسه ، وجعله ينكر إمامية الشيخين وعثمان من قبل . وأخيراً يذكر

---

(١) البغدادى : الفرق ص ٣١ .
(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات والفرق ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) الطبرى : ج ٣ ص ٦٣٤ .
(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٥) الطبرى : تاريخ ... ج ٢ ص ٦٣٤ .
(٦) الدينورى : الأخبار . ص م ٢٩٣ .
(٧) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٢ .

أبو خلف والنوبختى أن أبا عمرة كان يزعم أن جبريل يأتى المختار بالوحى من عند الله . فيخبره بذلك ولا يراه . وأن جبرائيل وميكائيل ينزلان عليه بالوحى (١) فكان كيسان إذن هو الذى صور المختار بهذه الصورة ، إن صحت هذه النصوص التى أوردها مؤرخو الفرق . ولكننا نرى البغدادى يذكر بأن المختار – بعد أن تمت له ولاية الكوفة والجزيرة والعراقين إلى حدود أرمينية تكهن وسجع كأسجاع الكهنة وادعى نزول الوحى إليه (٢) ولكنه ما يلبث أن يقول بأن السبأية هى التى خدعت المختار ، وأنهم قالوا له : أنت حجة هذا الزمان ، ثم حملوه على دعوى النبوة فادعاها عند خواصه ، وزعم أن الوحى ينزل عليه ، وسجل بعد ذلك (٣). ولم يذكر البغدادى هنا الكيسانية ، بل ذكر السبأية الغلاة من الروافض . والرافضة لم تظهر فى أيام المختار ، والشهرستانى – لا يذكر أبداً أن المختار قد أعلن نبوته ونزول الوحى إليه ، بل ذكر أنه كان يدعو إلى محمد بن الحنفية ، ويظهر أنه من رجاله ودعاته . ويذكر علوماً مزخرفة ينوطها به (٤) ، أى أنه غلا إلى حد ما فى حب محمد بن الحنفية ، وأن محمد بن الحنفية لما وقف على هذا تبرأ منه ، وتفسير هذا أنه نسب إلى محمد بن الحنفية علوماً كثيرة سرية ، وأن محمد بن الحنفية أنكر هذا . وهذا خطأ ، فلم يكن المختار بن أبى عبيد من رجال السحر والنيرنجات ، ولم يكن غنوصياً ، إنما كان رجلاً مقاتلاً لسناً فصيحاً ، تولى الشيخين أبا بكر وعمر ، ولكنه أحب أهل البيت وآمن بأحقية على بن أبى طالب وابنه الحسين ، فقاتل قتالاً عنيفاً فى هذا السبيل ، ونراه يقتل زوج أخته عمر بن سعد وابن أخته جعفر بن عمر ، ولا يأبه بقرابتهما له . ثم نراه بعد . يؤمن بمحمد بن الحنفية ، ويدعو له .

أما إذا كان هناك غلو فى عهد ولاية المختار للكوفة ، فقد قام به كيسان أو أبو عمرة ، وإن كان هناك شك أيضاً فى أن الآراء الغالية قد ظهرت منه . كان أبو عمرة من محبى أهل البيت ، فلما واتته فرصة الانتقام من أعدائه ، انتهزها بكل قواه ، فكان يقاتل ويقتل كل من شارك فى قتل الحسن ، ويهدم داره ، ويقتل كل ما فيه من ذى روح . وقد خرب دوراً كثيرة ، وقتل الكثيرين من أعداء الحسين ، وبقيت ذكراه فى الكوفة أمداً طويلاً بحيث كان أهلها يضربون به المثل ، فإذا أصاب الفقر إنساناً قالوا دخل أبو عمرة بيته ، وخلد الشاعر ذكرى أبى عمرة فيقول :

إبليس بما فيه خير من أبى عمره يغويك ويطغيك ولا يعطيك كسره

---

(١) نفس المصدر السابق والنوبختى : فرق : ص ٣٣ .

(٢) البغدادى : الفرق . ص ٣٩ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ٣١ .

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

عاون أبو عمرة المختار بن أبي عبيد ، في الكوفة ، ويبدو لمنه كان أعجميًّا ، ولذلك نراه يجمع العجم الحمراء ، وأرسلهم مع إبراهيم بن الأشتر حيث قتلوا قتلة الحسين [١] وقد قتل أبو عمرة في واقعة المذار عام ٦٧ للهجرة [٢].

وهنا نتساءل : هل كان أبو عمرة حقًّا غنوصيًّا ، وهل كان على صلة بجماعات ثنوية ومسيحية ويهودية ، نفثت سمومها فيه ، ثم حملها هو وأتباعه إلى شيعة الكوفة . ومن ثم نسبت للمختار . ليس لدينا نصوص قاطعة تثبت هذا ، إن كل ما لدينا من وثائق تثبت أنه كان مولى لقبيلة بجيلة، وأنه عاش في هذا الوسط القاتم من الأحزان على علي وبنيه ، وقد تبنت هذه القبيلة الغلو فيما بعد ، ولكن هل كان أبو عمرة منشئه ، وزارعه ، إنني أستبعد هذا . وأرى أنه كان أيضاً رجلاً من محبي أهل البيت ، ولو عرف المختار زيغه ، لما ولاه شرطته . وعرض حركته لدعايات الأمويين والزبيريين ، وإن كان لم يسلم منها في نهاية الأمر .

ولكن إذا لم يكن المختار بن أبي عبيد ولاصاحب شرطته أبو عمرة هما مؤسسي هذه العقائد الغالية في بيت رسول الله بعد السبأية ، فمن الثابت ، أن هذه الآراء قد وجدت في الكوفة ، ووسمت باسم المختارية أحياناً والكيسانية أحياناً أخرى . وكانت الكيسانية هي المسئولة الأولى عنها . إن في مجامع الكيسانية وبعد وفاة المختار وأبي عمرة . ورجوع الكيسانيين إلى دورهم ، بدأ الغنوص العنيف يلتف حول عنق الشيعة في الكوفة يعتصرها اعتصاراً ، ويشب مخالبه فيها بحيث لم تخلص الشيعة – في أقسامها المختلفة غلاة وعباسية واثني عشرية وإسماعيلية وقرامطة – من الآراء الكيسانية . ومن العجب أن هذه العقائد لم تتركز في أول الأمر حول إمام فاطمي ، بل تركزت في محمد بن الحنفية وهو إمام علوي ، ولكنه ليس من نسل فاطمة . ولعلنا من هنا نستطيع أن نصور منحنى كل من المختارية والكيسانية ، كانت المختارية ، شيعة حسينية عربية في مجموع آرائها . أعلنت انتماءها بمحمد بن الحنفية للانتقام للحسين بن علي ، وأدت مهمتها على أحسن وجه . وكتبت ملحمتها رائعة ناضرة ، بينما نرى الكيسانية – وهي فارسية هي في عقائدها حنفية تنادي بإمامة محمد بن الحنفية المطلقة ، ثم بإمامة ابنه أبي هاشم ، وأخلافهما من بعدهما ، أونادت بمهدية محمد بن الحنفية فقط .

ولقد كان لمحمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم أكبر الأثر في تكوين العقائد الشيعية الحقيقية . حقًّا لقد انقسمت الشيعة سواء أرادوا أم لم يردوا إلى فاطمية وحنفية . ولكن شيعة محمد بن الحنفية وشيعة ابنه أثرتا أكبر الأثر في كل فرق الشيعة بعدهما ، وهذا ما يجعلنا نفرد لها فصلاً خاصاً .

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٩٣ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات والفرق ص ١٦٦ تعليقات الدكتور مشكور.

الفصل السادس

الشيعة الحنفية

الإمام محمد بن الحنفية

تذكر الشيعة الحنفية أن النبى ﷺ قد بشر بميلاد محمد بن الحنفية ، فقد أخبر عليا أنه « سيولد لك من بعدى غلام وقد نحلته اسمى وكنيتى ولا تحل لأحد من أمتى بعده » وماتت فاطمة الزهراء وتزوج على عليه السلام الحنفية « خولة بنت جعفر من بنى حنيفة » ، وولد له محمد ، وقد أجمع كتاب أهل السنة أن محمد بن الحنفية كان واسع العلم شديد الورع شديد القوة . وكان محمد بن الحنفية يقول « الحسن والحسين أفضل منى وأنا أعلم منهما » وقد خرج محمد مع أبيه فى حربه يوم الجمل ودفع أبوه إليه رايته وقال له :

أطعنهم طعن أبيك تحمد لا خير فى حرب إذا لم توقد
بالمشرفى والقنا المشرد [1]

ومع أنه قد تردد فى حمل هذه الراية ، فقد عرف باسم « صاحب راية أبيه » وكان هذا سنداً فيما بعد – للكيسانية من أتباعه فى القول بإمامته . وقد تردد فى حمل هذه الراية ، لأنه رأى أنه قتال المسلمين . وكان يردد « هذه والله الفتنة المظلمة العميـاء » . وهنا يرد عليه أبوه قائلاً « هل عندك فى جيش مقدمه أبوك شىء » [2] وفى رواية أخرى « أتكون فتنة أبوك قائدها » وحمل ابن الحنفية الراية . وخاض الحرب – فيما يبدو – كارها . وحين انتهت الحرب وقتل الإمام على عاش مع أخيه الحسن حتى مات ، ثم استقر فى المدينة وعاش فيها متنقلاً بينها وبين مكة ، وبايع يزيد لولاية العهد فى حياة معاوية . وزاره فى دمشق بعد توليه الخلافة ، وقبل هداياه .

وفى المدينة بالذات أنشأ مكتباً للتعليم ، وقد كان هذا المكتب إحدى الحلقات الكبرى العلمية فى تاريخ الإسلام . ولم يتنبه الباحثون إلى أهميته من قبل ، من هذا المكتب خرجت كل الآراء المتعارضة فى الإسلام فالإرجاء ينسب إلى ابنه الحسن والاعتزال إلى ابنه أبى هاشم وحول شخصية

---

(١) الإسفرايينى : التبصير فى الدين ص ١٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٠ .

محمد بن الحنفية وفى هذا المكتب أيضاً ظهرت فيما أعتقد الآراء الكيسانية ومن تلامذة هذا المكتب أيضاً المختار بن أبى عبيد ، كما أن من تلامذته واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . إنها مدرسة تشبه مدرسة الحسن البصرى بل أعظم منها بكثير ، منها ظهرت الفرق المتعارضة والآراء المتناقضة والأفكار الغريبة .

أما عن محمد بن الحنفية نفسه ، فقد خاض مع أبيه - كما قلنا من قبل - غمار الحرب ، وكان لها كارهاً . وذلك أنها فرقت بين المسلمين ، ثم نراه - فيما بعد يعلن فكرته فى هذا « لو اجتمع الناس على كلهم إلا إنساناً واحداً لماقاتلته » وأعتقد أنه كان من المؤيدين للحسن فى تنازله عن الخلافة لمعاوية . لقد رأى أن لأهل البيت مهمة أسمى ، وهى نشر العقيدة والمساهمة فى تدعيمها ، وترك أمر المسلمين لمن أراد ، طالما لم يجتمع المسلمون على واحد من أهل البيت . بل رأى المسألة كلها مسألة عصبية وقوة ومنعة ، وليست أمراً من أمور الله . فقال « أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله نحن وبنو عمنا هؤلاء . يعنى بنى أمية » ومرة أخرى يقول « نحن أهل بيتين من قريش نتخذ من دون الله أنداداً - نحن وبنو أمية (١) » فلم يكره محمد بن الحنفية الغلو فقط ، فى بنى هاشم وبنى أمية ، بل إنه عبر بقوله هذا أو بقوليه هذين أن الأمر أمر عصبية ، يأخذها من غلب .

ومات معاوية وول الأمر يزيد ، وقتل الحسين ، وبكاه محمد بن الحنفية أشد بكاء . ولكنه بايع يزيد بن معاوية ، ورفض تماماً أن يخلع بيعته . وحصر عبد الله بن الزبير بنى هاشم فى شعاب مكة . كما فعل من قبل مشركو قريش مع الرسول وبنى هاشم . وأعلن ابن الحنفية « لو أن أبى على أدرك هذا الأمر لكان هذا موضع رحله ، فهو إذن يتبع سنة أبيه أو السنة التى أرادها لأبيه . ولكنه يضيق بهؤلاء العرب الذين سلبوه الحق هو وآل بيته « أما آن لكم أن تعرفوا كيف نحن ، مثلنا فى هذه الأمة مثل بنى إسرائيل فى آل فرعون « كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا وينكحون نساءنا بغير أمرنا ، فزعمت العرب أن لهم فضلاً عن العجم (٢) . . . » وتتضح روح الإيثار عنده وحدبه على شيعة أهل البيت حين يقول « وددت لو فديت شيعتنا هؤلاء ولو ببعض دمى(٣) » . وهو يريد لهم الأمن والسلام فيقول لأحد أتباعه « الزم هذا المكان . وكن حمامة من حمامات الحرم . حتى يأتى أمرنا . فإن أمرنا إذا جاء فليس به خفاء . كما ليس بالشمس إذا طلعت خفاء » ويزعجه حوادث ابن الزبير وطمعه فيقول « إن هذه لصاعقة لا يقوم لها شىء » .

ويأتيه أحد أتباعه من خراسان ، وطلب منه أن يكلمه سرًّا وقال له . . « لما زال الشين فى حبكم

---

(١) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٦٩ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٧١ .

حتى ضربت علينا الأعناق وأبطلت الشهادات ، وشردنا فى البلاد وأوذينا حتى لقد هممت أن أذهب فى الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه . لولا أن يخفى على أمر آل محمد » ثم يسأله هل يقاتل مع الخوارج أمراء بنى أمية . وأجاب محمد بن الحنفية : أما قولك : لقد هممت أن أذهب فى الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه وأجتنب أمور الناس فإن تلك البدعة الرهبانية . ولعمرى لأمر آل محمد لأبين من طلوع هذه الشمس » ثم ينهاه عن القتال مع الخوارج ، ويطلب منه التقية « اتق هؤلاء القوم بتقيتهم » فمبدأ التقية يتقرر هنا كمبدأ شيعى على يد محمد بن الحنفية . ثم يعلن مبدأ الولاء لآل محمد فيقول « من أحبنا ، نفعه الله ، وإن كان فى الديلم (١) » .

ولقد حظى محمد بن الحنفية فى كتابات أهل السنة والجماعة بالمكانة السامية ، فقد آثر اعتزال كل الفتن ، وبايع الخلفاء الغاصبين من بنى أمية حقناً للدماء وحفظاً للمسلمين ، وعاش فى فتنة الزبير ، وحاول تجنبها وتبرأ فى رأى أهل السنة والجماعة أيضاً من الآراء الغالية التى نادت بها الكيسانية . ومن الثابت أن محمد بن الحنفية لم يكن على الإطلاق رجل فتن وقلاقل ، ولكنه لم ينس واجبه ، وحق آل البيت ، ومن الواضح أيضاً أنه هو الذى استعمل المختار بن أبى عبيد على العراقين بعد قتل الحسين ، وأمره بالطلب بدمه والثأر له وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا (٢) . وقد فعل المختار هذا .

أما الآراء الشيعية التى ظهرت فى عصر محمد بن الحنفية ، وبعد شهادة الحسين فهى :

(١) المهدية : وهنا نجد أول ظهور حقيقى لفكرة المهدى . واعتبر محمد بن الحنفية أول مهدى فى الإسلام . وكان أتباع محمد بن الحنفية يسلمون عليه « سلام عليك يا مهدى » ويورد ابن سعد فى طبقاته أنه رد عليهم بقوله « أجل : أنا مهدى أهدى إلى الرشد والخير ، واسمى اسم نبى الله ، وكنيتى كنية نبى الله ، فإذا سلم أحدكم فليقل سلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أبا القاسم (٣) » .

ويذكر البغدادى أن عامر بن واثلة الكنانى صاحب محمد بن الحنفية — كان يسير فى مقدمته وهو فى طريقه إلى عبد الملك بن مروان يقول لأتباعه :

يا إخوانى : ياشيعتى لا تبعدوا وآزروا المهدى كيما تهتدوا
محمد الخيرات يا محمد أنت الإمام الطاهر المسدد
لا ابن الزبير السامرى الملحد ولا الذى نحن إليه نقصد(٤)

وسواء أكانت هذه تقية من محمد بن الحنفية — أى سيره إلى عبد الملك بن مروان أو غير تقية — فإنه اعتبر أول مهدى فى الإسلام ، وكان له ملامح المهدى تماماً ، ونحن نعلم أنه وقف على عرفات فى

---

(١) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٧٠ .
(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٢٧ .
(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٨-٦٩ .
(٤) البغدادى : الفرق ص ٤ .

لواء يدعونه بأمير المؤمنين . بل إن فرقة من الفرق اعتبرته الإمام المهدى الوحيد . وأنه هو وصى على بن أبى طالب الوحيد أيضاً « وليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه ولا أن يشهر سيفه إلا بإذنه ، وإنما خرج الحسن بن على إلى معاوية محارباً له بإذن محمد ووادعه وصالحه بإذنه وأن الحسين خرج لقتال يزيد بإذنه ولو خرجا بغير إذنه هلكا وضلا وأن من خالف محمد بن الحنفية كافر مشرك (١) فهو إذن الإمام الحقيقى ، وصاحب الحق بعد الإمام على فى الخلافة عند طائفة من الكيسانية .

(ب) البداء : والبداء له معان فيما يقول الشهرستانى : البداء فى العلم وهو أن يظهر لله صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبداء فى الأمر وهو أن يأمر بشىء ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، ومن لم يجوز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة فى الأوقات المختلفة متناسخة . وقد جوزت الشيعة فى عهد محمد بن الحنفية البداء على الله ، ونسبتها كتب أهل السنة للمختار بن أبى عبيد . ويرى الشهرستانى أن المختار لجأ إلى القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم الحوادث المستقبلة ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، يخبره فيها بما سيحدث . فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة ، فإن حدثت الحادثة كما ذكر قوله ، جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم تحدث قال : قد بدا لربكم . وكان لا يفرق بين النسخ والبداء . فقال إذا جاز النسخ فى الكلام جاز البداء فى الأخبار (٢) . ويبدو أن القول بالبداء يستند عند الشيعة على قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . والبداء ظهور الرأى بعد أن لم يكن ، والبدائية : هم الذين جوزوا البداء على الله عز وجل بأن يعتقد شيئاً ، ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقد ، غير أنه من الواضح أن المختار لم يلجأ إلى هذه الحيل ، وإن كانت فكرة البداء قد ظهرت فعلاً فى مجتمع الكوفة فى عهده ، وعلى يد أتباعه .

والملطى لا ينسب البداء إلى المختارية أو الكيسانية بل إلى السبأية ، ويقرر أنهم يقولون . إن الله تبدو له البدوات (٣) أما مؤرخ العقائد وشيخ السنة أبو الحسن الأشعرى ، فإنه ينسب فكرة البداء إلى الرافضة ، وهو لفظ أطلق على الشيعة فيما بعد ويرى الأشعرى أنها افترقت فى جواز البداء على الله ، هل يجوز أن يبدو له إذا أراد شيئاً أم لا ، إلى ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : ترى أن الله تبدو له البدوات ، وأنه يريد أن يفعل الشىء فى وقت من الأوقات ، ثم لا يحدث لما يحدث له من البداء ، وأنه إذا أمر بشريعة ثم نسخها ، فإنما ذلك لأنه بدا له فيها ، وأن ما علم أنه يكون ولم يطلع عليه أحداً من خلقه فجائز عليه البداء فيه . وما اطلع عليه عباده فلا يجوز عليه البداء فيه (٤). من هذا النص نرى أن للبداء معنى آخر يتصل بقدرة الله وبعلمه ، فما يقدر

---

(١) البغدادى : فرق الشيعة ص ٦ ، ٢ .
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .
(٣) الملطى : التنبيه .. ص ٢٦ .
(٤) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩ .

عليه الله ولم يطلع أحداً عليه ، فله أن يفعله أولا يفعله ، وأما ما علم الناس أنه كائن ، فلا بداء فيه .

والفرقة الثانية : وهى تقرر البداء لله إطلاقاً ، فهو جائز على الله فيما علم أنه يكون حتى لا يكون ، وجوزت ذلك فيما أطلع عليه عباده وأنه لا يكون كما جوزوه فيما لم يطلع عليه عباده .

والفرقة الثالثة : وهى تقرر أنه لا يجوز على الله البداء (١) . فالبداء إذن فكرة نشأت ساذجة فى عهد المختار ، وفى أوساط الغلاة ، ثم انقلبت إلى فكرة من «جليل الكلام» فيما يرى الأشعرى .

(جـ) العلم السرى : وبدأت فى عهد محمد بن الحنفية فكرة العلم السرى منسوباً إلى الأئمة . وقد ذكر الشهرستانى : « والسيد كان كثير العلم غزير المعرفة وقّاد الفكر ، مصيب الخاطر فى العواقب ، قد أخبره أمير المؤمنين عن أخبار الملاحم ، وأطلعه على مدارج المعالم . وهذا ما يؤمن به أهل السنة ولكن الشيعة فى عصره أضافوا . « أنه كان مستودعاً علم الإمامة حتى سلم الأمانة إلى أهلها ، وما فارق الدنيا حتى أقرها فى مستقرها ، فإنه يعرف الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس (٢) . وهذا تصوير «متأخر» . ظهر من الإمامية حين بدأت نظريات الإمام المستقر والمستودع ، وتظهر فى محيط الشيعة الغلاة المتأخرين ثم الإسماعيلية فيميزون بين إمام مستقر وإمام مستودع . فالإمام المستودع من تنتقل إليه الإمامة – وديعة لكى ينقلها إلى إمام مستقر أو تكون الإمامة فى عقب المستقر ، ولا تكون فى عقب المستودع . فالحسن كان إماماً مستودعاً والحسين هو الإمام المستقر . وتستخدم الشيعة الغلاة ، ثم الإسماعيلية هذه المصطلحات أسوأ استخدام .

ويبدو أن محمد بن الحنفية لم يشغل بمسألة الإمام المستودع والإمام المستقر . لأنه لم يعرفها ولم تظهر فى عهده . ولكن ما شغله هو نسبة العلوم السرية إليه . وقد كره أن يعلم عنه أنه يحوى هذه العلوم فيفتتن الناس فيعلن « إنا والله ما ورثنا من رسول الله إلا ما بين هذين اللوحين (٣) » ويقصد بهذا القرآن الكريم .

هذه الأفكار الفلسفية الثلاث التى ظهرت فى عهد محمد بن الحنفية ، منسوبة إلى المختارية أحياناً وإلى الكيسانية أحياناً . وقد ظهرت فى الكوفة بالذات ، وعاون عليها بلا شك السبئية التى انتشرت لدى بعض القبائل التى اتخذت التشيع عقيدة لها ومبدأ – كقبيلة عجلة وقبيلة بجيلة وقبيلة كندة ، وغلت فى التشيع أشد غلوًّا ، وقد دخلت هذه العقائد فى صورة مخففة فى عقائد الإمامية الاثنى عشرية .

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩ .

(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ١٤١ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٣٢ .

وقد ساد الكوفة – إبان ذلك الوقت–الأساطير الكبرى عن ملحمة قتل الحسين عليه السلام ، ثم عن قتل قتلته ، فالملائكة على الخيل البلق تحارب معهم والحمامات البيض التى تظهر فى الهواء والملائكة تنزل على صورة الحمامات (١) . أساطير ظهرت فى هذا المجتمع الغريب . وكان مع المختار السبأية أى محبو على بن أبى طالب . وهم عرب أقحاح ، والكيسانية . وهم عبيد أهل الكوفة أى الموالى من الفرس «لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال سادتهم» (٢) ،ولابد أن تظهر كل تلك الأساطير فى هذا الجيش الثائر ، وأن يعاون عليه ثقافات عدة وأفكار متباينة . ولكن لم يكن المختار بن أبى عبيد صاحب هذه الأساطير أو منشئها .

أما تطور العقائد الكيسانية بعد ذلك – إلى أن الدين طاعة رجل ، وتأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها على رجال . . .والتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت . . . فلم تظهر فى عهد محمد بن الحنفية . ولم يعرفها المختار .

أما مصادر الأفكار الشيعية الثلاث فى هذا الوقت فهى : المهدى . ويستند الشيعة على الحديث «لا تنقضى الدنيا حتى يخرج رجل من أمتى يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورا» . ولكن من الثابت أن المهدى فكرة تنازعها الأديان الثلاثة وأتت بها اليهودية والمسيحية والإسلام فهى حظ مشترك بينهم جميعاً . ومن المحتمل أن يكون كعب الأحبار ، كما سنرى بعد . هو الذى أدخلها فى التراث الإسلامى . أما البداء ففكرة يهودية . والعلم السرى فهو فكرة غنوصية .

وأخيراً مات محمد بن الحنفية بشعب رضوى عام ٨١ هـ .

---

(١) الشهرستانى : الملل . . ج ١ ص ٢٤ .

(٢) البغدادى : الفرق . . ص ٢٢ .

الفصل السابع

الشيعة الأبوهاشمية

الإمام أبو هاشم بن محمد بن الحنفية

انتقلت الإمامة بعد وفاة محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم وللإمام أبي هاشم من المكانة العظمى في تاريخ الفكر الإسلامي ، ما لا يدانيه أحد من رجالات أهل البيت في عصره أو حتى من التابعين ، والكشف عن شخصيته من أعقد الأمور وأكثرها إشكالاً : هل كان أبو هاشم رجلا ذكياً من رجال البيت العلوي ، أم كان غنوصياً قائماً .

أما أهل السنة والجماعة فقد اعتبروه إماماً من أئمة المسلمين ، سار على هدى أبيه ، وأخذ يعمل معه في نشر العقيدة ، وكان له دور فعال – فيما يبدو – في المكتب الذي أنشأه أبوه لنشر العلم . ثم كان محدثاً كبيراً . أخرج له أصحاب الصحاح الستة ووثقه ابن سعد والنسائي وغيرهما (١). وفي الوقت نفسه يعتبره طاش كبرى زاده – كما قلنا من قبل – شيخاً من شيوخ واصل بن عطاء ، أي يعتبره أول من نادى بالاعتزال . يقول طاش كبرى زاده «أول ما ظهر مذهب الاعتزال وشاع ، إنما ظهر من واصل بن عطاء . أخذ الاعتزال عن الإمام أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب . قيل كان أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه . كان الإمام أبو هاشم المذكور»(٢) بينما كان أخوه الحسن بن محمد بن الحنفية أول المرجئة وله تصنيف فيه . فنحن إذن أمام محدث ثقة في رأي المحدثين ومنشئ الاعتزال في رأي مؤرخي علم الكلام ، وأخوه الحسن منشئ الإرجاء .

أما الشيعة الحنفية فقد رأت طائفة منها أن الإمامة الروحية قد انتقلت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم معلنين أن محمد بن الحنفية «أفضى إلى أبي هاشم بأسرار الكلام ، وأطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن ، قالوا إن لكل ظاهر باطنا ولكل شخص روحاً ، ولكل تنزيل تأويلا ، ولكل مثال في هذا العلم حقيقة في ذلك العالم ، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني ، وهو العلم الذي استأثر به علي

---

(١) تعليقه (٣) لمحمد بن زاهد الكوثري على التبصير في الدين ص ٢٧ .

(٢) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٤٣ .

عليه السلام ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى بذلك السر إلى ابنه هاشم ، وكل من اجتمع فيه هذا العلم ، فهو الإمام حقاً»(١) نص من أخطر النصوص إن صح فعلا أنه ظهر فى عهد أبى هاشم ؛ ويبدو منه أن المجامع الغنوصية – فى نواحى الكوفة بدأت تعمل عملها الكبير الذى سيؤدى فى تاريخ الإسلام العقائدى إلى أخطر النتائج ، ولا شك أنه كان هناك فرس كثيرون فى جيش المختار بن أبى عبيد ، بل إن المحمرة كانوا سواد جيش إبراهيم بن الأشتر فى حربه مع عبيد الله بن زياد ، ولا شك أن العقائد الثنوية بدأت تستشرى فى هذا الوسط الغريب . إن انتقال العلم السرى من على إلى محمد بن الحنفية إلى أبى هاشم ، ثم إلى كل من اجتمع فيه هذا العلم سيؤدى إلى نتائج خطيرة فى تاريخ الشيعة ، وسنرى بعد قليل أن هذا العلم – سيخرج من دائرة العلويين إلى دائرة أناس آخرين وبخاصة فى قبيلة عجلة أو قبيلة بجيلة ، يدعم الفكرة بعض الموالى ، وهم يحملون عقائد قديمة كامنة فى نفوسهم . وأخيراً نرى فكرة تطبيق الآفاق على الأنفس . وظهور مصطلحى الظاهر والباطن ، وأن الظاهر لا يفسر ولا يؤول إلا باطناً ، وأيضاً نلمح لأول مرة فكرة الشخص الروحانى ، وأن إليه جماع الدنيا . وستخرج من هنا فكرة أن الدين طاعة رجل ، طالما اجتمعت الآفاق فى نفس رجل ، ثم نرى الفكرة الأفلاطونية التى تقرر أن لكل شىء مثالا ، والتى دخلت ببراعة نادرة فى العقائد الغنوصية ، تدخل أيضاً فى قلب المذهب الشيعى . وكما أخذت الشيعة المعتدلة فيما بعد بكل العقائد التى أعلنها الشيعة فى محمد بن الحنفية ونسبوها إلى الأئمة الاثنى عشر ، دخلت أيضاً العقائد الغنوصية بعد عهد أبى هاشم فى عقائد الشيعة الإمامية الاثنى عشرية فى صورة معتدلة وفى عقائد الشيعة الإسماعيلية فى صورة مغالية . بل إن منهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وأن لكل مثال فى العالم الآخر مثالاً فى هذا العالم . سيصبح نظرة ميتافيزيقية تكون أساس المذهب الإسماعيلى الميتافيزيقى فى نظرية المثال والممثول ، كما أن فكرة الظاهر والباطن والتأويل والتنزيل ستصبح كلها دعائم للمذهب الإسماعيلى ؛ بل ومن العجب أن نرى «العدل والتوحيد» وهما أهم عقائد المعتزلة ، وهى التى تنسب أيضاً إلى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية تدخل وتسيطر على عقائد الاثنى عشرية ، كما تسيطر على عقائد الزيدية ، وتسيطر على عقائد الإسماعيلية وينتمى الغلاة جميعاً فى آرائهم إلى تلك الآراء الشيعية التى ظهرت فى عهد إمامة أبى هاشم . وكان القرامطة أيضاً تلاميذ أمناء للأبى هاشمية .

لم تكن تلك الأفكار الغنوصية هى كل ماظهر فى عهد إمامة أبى هاشم الروحية وإنما ظهرت فكرة خلود الإمام ورجعته ، وهى متصلة بالغلاة وسنبحثها فى موضعها .

وأخيراً نرى أبا هاشم يقدم على سليمان بن عبد الملك ، الخليفة الأموى ، فيقول سليمان لخاصته :

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٤٣ .

« ما كلمت قرشيًّا قط يشبه هذا . وما أظنه إلا الذى كنا نحدث عنه (١) » ويبدو أن الأخبار توالت بأن هناك من سيظهر ويعلن الثورة من آل البيت ، وكان أبو هاشم ذا نشاط جم لسناً عالما ، وكان على صلة بأهل خراسان . بل إن أهل خراسان كانوا يعتبرونه « الإمام » وأنه ورث الوصية عن أبيه (٢) وهذا هو سبب تخوف سليمان بن عبد الملك منه . وفى خلال عودته من دمشق إلى المدينة ، وبعد محادثة سليمان له وتبينه خطورة الرجل . أرسل سليمان من أتباعه من ضربوا له أخبية فى الطريق . وحين استقاهم أبو هاشم . حين مرّ بهم . قدموا له اللبن المسموم . فلما استقر اللبن فى جوفه ، وأحس أنه سم قال لمن معه من أصحابه « أنا والله ميت ، فانظر من هؤلاء » أى هؤلاء الذين قدموا له السم . فنظروا فإذا القوم قد قوضوا أخبيتهم ورحلوا فارين ؛ فطلب أبو هاشم من أتباعه أن يحملوه إلى ابن عمه محمد بن على بن عبد الله بن عباس بأرض الشراة ، فأسرعوا به إليه .

ويعلن العباسيون فيما بعد : أن أبا هاشم أوصى إليهم » ويوردون القصة الآتية : « أنه لما قدم — وهو فى نزعه الأخير على محمد بن على بن عبد الله بن عباس . وقال له : يا ابن عم أنا ميت ، وقد صرت إليك ، وهذه وصية أبى إلى وفيها أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك ، والوقت الذى يكون ذلك والعلامة ، وما ينبغى لكم العمل به ، على ما سمع وروى عن أبيه على بن أبى طالب عليه السلام ، فاقبضها إليك . وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيراً . وهؤلاء دعاتك وأنصارك فاستبطنهم ، فإنى قد بلوتهم بمحبة ومودة لأهل بيتك »(٣) ثم طلب منه أن يرسل رسله إلى خراسان ، ثم أبان له عن مراكز الشيعة فى رقعة العالم الإسلامى ، وطلب منه آخر الأمر اختيار الدعاة ، وأن يكونوا اثنى عشر نقيباً ، فإن الله عز وجل لم يصلح أمر بنى إسرائيل إلا بهم وسبعين نفساً بعدهم يتلونهم . فإن النبى ﷺ إنما اتخذ اثنى عشر نقيباً من الأنصار اتباعاً لذلك .

ومات أبو هاشم بعد أن دفع الوصية وأسرار الدعوة إلى محمد بن على . وذلك عام « ٩٧ » وسأعود إلى مناقشة هذه الوصية حين أعرض لنشأة الدعوة العباسية والغلو العباسى . ومع أن هذه الوصية لم تكن الوحيدة التى تركها أبو هاشم . ولكننا نستطيع أن نستخلص منها الآراء العامة الشيعية التى ظهرت عنها .

يبدو تماما منها أن أبا هاشم كان منظم الدعوة الشيعية فى العراق وخراسان ، حيث اعتبر فى

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) الأصفهانى : مقاتل الطالبين ص ٩١ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ص ٤١ .

خراسان – وستكون هى موطن الحركة العباسية – الوصى والإمام . ثم استخدم الدعاة والحجج . وأصبح مصطلح الداعى والحجة من أهم مصطلحات الشيعة . وأصبح الدعاة والحجج أعمدة هذه العقيدة سواء لدى العباسيين ثم الاثنى عشرية . ثم الإسماعيلية .

وهو أيضاً الذى استخدم « النقباء » أو من أشار باستخدامهم . وطلب من محمد بن على أن يكون دعامة دعوته اثنى عشر نقيباً . وهو أيضاً الذى نادى بفكرة « العلم السرى » الغنوصى المتوارث عن أبيه عن الإمام على . وأخيراً كان أبو هاشم أول من أخرج الوصية فعلاً من البيت الفاطمى ، ولم يكن هو نفسه فاطمياً . وأخرجها أيضاً من البيت العلوى إلى بنى عبد المطلب عامة . وسنرى بعد من الشيعة الغلاة ، من يخرجها كلية من آل البيت إلى أناس وأشخاص ليسوا من الفاطميين ولا من العلويين ولا حتى من الطالبيين . وسيؤدى كل هذا إلى نفوذ الغنوص . وبخاصة فى تلك القبيلة الغالية – بنى عجل – أو بنى بجيلة . وسيؤدى أيضاً إلى فكرة التبنى الروحى عند الإسماعيلية وستعمل الدوائر الغنوصية من مانداثية ومزدكية ومانوية ، وديصانية ، عملها الكبير فى تاريخ العقيدة الشيعية . وعلى أية حال كانت وصية أبى هاشم للعباسيين تكأة لهم فى نشر دعوتهم بخراسان وهى التى قام فيها أبوهاشم بنشاطه السياسى الخطير . أو بمعنى أدق أخذت الراوندية العباسية أعمدتها وأساسها من كيسانية أبى هاشم .

ولكن لم تكن هذه الوصية الوحيدة التى تركها أبو هاشم بل كانت هناك وصية أخطر ، وأدق ، وأستر . فقد ذهبت الكيسانية الخلص إلى أن أبا هاشم عبد الله بن محمد مات وأوصى إلى أخيه على بن محمد بن الحنفية . ويذهب هؤلاء إلى أن أبا هاشم ذهب إلى أرض الشراة ليترك الوصية لأخيه على بن محمد بن الحنفية ولكن العباسيين غيروا الاسم إلى على بن محمد العباسى ، وأن أتباع أبى هاشم الذين كانوا معه لم يتبينوا هذا الخطأ . ثم أوصى على بن محمد بن الحنفية إلى ابنه الحسن بن محمد ، وأوصى الحسن إلى ابنه على بن الحسن ، وأوصى على بن الحسين إلى ابنه الحسن بن على . ويقول أبو خلف القمى : « والوصية والإمامة عندهم فى ولد محمد بن الحنفية لا تخرج إلى غيرهم . ومنهم زعموا يكون القائم المهدى ، وهم الكيسانية الخلص الذين غلبوا على هذا الاسم ، وهذه الفرقة خاصة تسمى المختارية »(١) هذه الفرقة – الكيسانية الخلص – هى أهم الفرق الشيعية فعلا ، فيها بقيت الكيسانية الخالصة ، وقد تابعت نظام المختار الاقتصادى ، فأنشأت المجتمع المعروف باسم المجتمع القرمطى ، وهو مجتمع اقتصادى ذو نزعات اشتراكية أوشيوعية ، وإلى هذه الفرقة تنسب النقابات المشهورة فى الحركة القرمطية . كما أن هذه الفرقة التى بقيت فى الكوفة وفى واسط ، ستطور العقائد المختارية والعقائد الكيسانية ، فتختلط أشد الاختلاط بالغنوصية ، وسينتج عنها كتاب بل كتب دينية منسوبة لأحد

(١) أبو خلف القمى : المقالات ص ٣٩ والنوبختى ، فرق الشيعة ص ٣١ .

أولاد ابن الحنفية ، وسيكون « القائم المهدى » هو محمد بن الحنفية أو أحد أولاده وهو المنتظر عند القرامطة جميعاً . وسأثبت إثباتاً قاطعاً أن القرامطة لم يكونوا إسماعيلية ، بل هم الكيسانية الخلص .

أما الوصية الثالثة – فكانت لعلى بن الحسين زين العابدين فقد أعلنت طائفة من الأبى هاشمية أن أبا هاشم قال « إن الوصية له مادام حياً ، فإذا مات رجعت إلى أصلها – يعنى إلى أبيه » ولكن البعض قال بأنه جعل الوصية عند موته – أى محمد بن الحنفية إلى أبى هاشم ، فإذا مات ، أن ترد إلى على بن الحسين بن على وهذه الفرقة انصهرت بلا شك فى الإمامية . ولكن على أساس أن الوصية انتقلت من أبى هاشم إلى زين العابدين[١] !

ولكن ما لبث أن فاض الأمر وضخم . قام عبد الله بن عمر بن حرب الكندى – وهو من السبأية يدعى الوصية من أبى هاشم ، كما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب يدعيها أيضاً ، ثم ادعى بيان بن سمعان وصية أبى هاشم ، وكلهم أدخل فى باب الغلو ، ومن العجب أن الغلاة جميعاً يظهرون فى إثر أبى هاشم ، وباسمه ، ومن العجب ! أن يظهر المعتزلة أعداء الغلاة وأعداء الغنوصية الشداد فى إثر أبى هاشم وباسمه .

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٣٥ .